

الرواية الخالدة

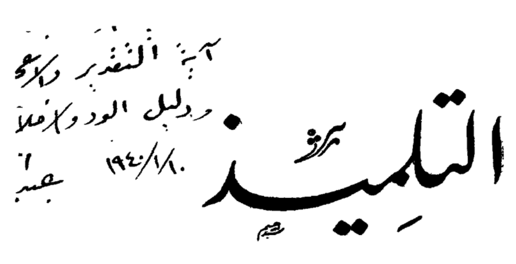
التى وضعها نابغة كتاب فرنسا

اهداءات ٢٠٠٢

سرة د/ عبد الرحمن بدوي

/عبد الرحمن بدوي للإبداع الثقافي

[illegible]



الرواية الخالدة

التي وضعها نابغة كتاب فرنسا

پول بورچيه

ونقلها إلى العربية

عبد المجيد نافع

مطبعة حجازي بالقاهرة

١٣٥٥ هـ – ١٩٣٦ م

اهداء الرواية

إلى الشاب الذى يوشك أن يخوض معركة الحياة

إلى الشابة التى لا تلبث أن تنشىء جنوداً للوطن

اهدى هذه الرواية

ع . ه

تقــدمة

وضع رواية « التلميذ » نابغة الأدب الفرنسى پول بورجيه

وطالعتها غير مرة . فكانت تنازعنى إليها نفسى . فآثرت أن أحبو بها طلاب الأدب الرفيع . وأحببت أن تضاف إلى تراث نهضتنا الأدبية

وحرصت على أن أجلوها فى حلة قشيبة . لتتمشى مع جلال الغاية التى قصد اليها الكاتب . وكلى رجاء ، أن أكون قد وفقت إلى إحلال المعانى الغربية ، فى مغان عربية

ولئن كنت فى بعض المواطن قد عمدت إلى شىء من التصرف ، وقليل من الحذف ، فانما أردت أن أتفادى ما قد يصطدم مع الشعور الدينى ، وأتجافى عما يمكن أن يتعارض والتقاليد القومية ، أو يخدش حياء العذارى ، أو يبعث السأم فى النفوس

على أنى كنت أميناً على فكرة الكاتب ، حريصاً على المبدأ الذى قصد إلى تحقيقه ، فما أخللت بسياق الرواية ، ولا شوهت الوقائع ، ولكنى وفرت على القراء بعض المسائل الفلسفية الجافة التى يستعصى فهمها على الذين لم يتوفروا على دراسة الفلسفة

وفى الحق أن الكاتب لم يقصد إلى محض التسلية . بل عمل على ترويج فكرة ، ومحاربة بدعة ؛ ومحو ضلالة ؛ والدفاع عن رأى ، والذود عن مبدأ . على أنه قد وفق إلى الجمع ، بين روعة القصة ، وجلال المعنى

ولا أحسبنى مخطئاً فى اعتقادى أنه وضع قصته للخاصة والعامة معاً . فالخاصة ترى بها الفلسفة الناضجة ، والآراء الحقة ، والتحليل القوى الرائع ، وكل أولئك يسوقه المؤلف فى أسلوب ساحر ، وقصص يستهوى الأفئدة . فأما العامة فتجدها

أشبه الأشياء بالروايات البوليسية ، حافلة بالحوادث العنيفة ، فياضة بالمفاجآت المروعة

ولم أشأ أن أضيق دائرة الانتفاع بتلك الرواية الممتعة الشيقة ، فأبرزتها فى ثوب قشيب ترضى عنه بلاغة الخاصة ، ولا يعسر على فهم العامة

وما التحليق فى سماء البلاغة إلا أن يكتب الكاتب ليفهم الناس ، وما الاسفاف والابتذال إلا أن تضل ، فى شعاب ما يكتبه ، العقول

***

فى أواخر القرن التاسع عشر طغت على فرنسا موجة الالحاد . وعصفت بها ريح التنكر لكل شىء . فكنت ترى نفراً يجحدون الأديان جميعاً . ويتهجمون على كافة ما يقدسه مواطنوهم . وترى طائفة تنكر ما تواضع قومها على أنه شرف ، واصطلحوا على أنه فضيلة ، زعماً بأن ، الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، والجمال والقبح ، والشرف والانحطاط ، ان هى إلا كلمات يطنطن بها الناس ، دون طائل ، ولا غناء

واستسلم فريق من الشبان إلى الاباحية ، جرياً وراء القائلين بأن قيمة الحياة فى تحقيق أكبر قسط من اللذة والمتاع

وعمد فريق آخر إلى اعتناق المذاهب الهدامة . فسخروا من النظم العتيقة ، وهزأوا بالتقاليد البالية ، وأعملوا معاولهم فى بناء المجتمع ليقيموا على انقاضه صرح المجتمع العصرى الذى تتحقق فيه مبادىء العدالة والحرية والسعادة

ووقف بول بورجيـــه فى وجه تيار الالحاد يصده ، وعاصفة الاباحية ، والاستهتار ، والفوضى الفكرية ، يدفع أذاها عن الشبيبة الفرنسية ، لتكون خليقة بمجد فرنسا الطارف والتليد

ولقد وفق فى رواية « التلميذ » الى أقصى حدود التوفيق

وأرى حقاً على أن أدع القارىء يشهد مصداقاً لما قلت

وأرجو أن أكون قد ساهمت بنصيب فى نهضتنا الأدبية ؟

عبد المجيد نافع

الفيلسوف الهدام

كان أهل مدينة « كونجزبرج » يرقبون حدثا رهيبا يقوض دعائم العالم المتحضر ، اذا بدا يوما للفيلسوف « عمانويل كَنْت » أن يغير وجهته فى رياضته اليومية . وما لبث الفيلسوف غير بعيد حتى علم باضطرام نيران الثورة الفرنسية . وعلى الرغم من ان أهل « باريس » لا يجنحون الى الاستسلام لمثل ذلك الوهم ، فقد هال قطان شارع « جى دولا بروس » ان يروا ، فيلسوفا ، ان لم تكن له شهرة « كنْت » المستفيضة ، فانه يشبهه فى دقته ونظامه ، وحركاته وسكناته ، ويزيد انه اشد منه ايغالا فى الهدم — نقول هالهم أن يروه ، على غير مألوف عادته ، يبرح البيت فى يوم من أيام شهر يناير من عام ١٨٨٧ حوالى الساعة الواحدة . ذلكم هو « ادريان سكست » الذى آثر الانجليز أن يخلعوا عليه لقب « سبنسر الفرنسى »

وكان البيت الذى اختاره لمقامه يقع فى حى من تلكم الأحياء الباريسية التى ترفرف عليها أعلام الهدوء والسكينة ، وكان سكان الحى يرقبون حركات بعضهم البعض . بل كانت الحركات البريئة تثير القيل والقال ، وتطلق الأشاعات من كل عقال . فاذا بدا للنسوة أن يبدين زينتهن لغير بعولتهن ، أصبحن مضغة فى الأفواه . واذا عرض لأحد أن يبدل موعد غدوه ورواحه ، استرعى الأنظار ، واستثار فضول الناس . فما بالك بادريان سكست ، وسترى من الصورة التى نرسمها له ، انه رجل غريب الأطوار ، خليق أن يسترعى الانظار والأفكار

وحقا إن حياة ذلك الرجل تثير طلعة الراغبين فى تعرف الطبيعة الانسانية ، وتعطيهم صورة صحيحة واضحة للفيلسوف الذى أشربت نفسه حب الفلسفة ، وجدّ فى البحث وراء الحقيقة ، وتمزيق القناع عن أسرار هذا العالم ، وقصارى القول كل مايثير العقل البشرى ، فوقف حياته على البحث والتقصى

مضت أربعة عشر عاما ، من يوم أن وضعت حرب السبعين أوزارها ، فأقبل مسيو سكست على شارع « جى دولابروس » واتخذ له فى أحد البيوت مسكنا . ولم يكن جاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، ولكن لا يبدو عليه شىء من غضارة الصبا ، أو نضارة الشباب ، فقد بكرتا بمغادرته لاضنائه العقل فى عالم الآراء والأفكار

كانت له جبهة عالية بارزة ، وفم ينفرج عن شفتين دقيقتين ، ولون يضرب إلى الصفرة ، وعينان مريضتان من الانكباب على الدرس ، وادمان المطالعة ، تختفيان تحت عوينات سوداء ، وجسم نحيل ، يرتدى الثوب الرسمى ، صيفاً وشتاء ، وشعور متدلية قد اشتعلت شيبا ، ولات حين مشيب ، تحت قبعة تكسوه جلالا وروعة ، وان شئت فسراً ورهبة .

وكان يشغل مسكنا فى الدور الرابع ، يتقاضاه سبعمائة فرنك فى العام . مؤلف من حجرة للنوم ، وغرفة للمكتب ، وأخرى للطعام ، وغيرها للخادمة ، ومطبخ ، وكلها تشرف على أفق رحب . فكان الفيلسوف مشرفا من نوافذه على جنبات حديقة النباتات

وعهد بادارة شئون البيت إلى الآنسة « ترابينارد » على أن يدفع لها خمسة وأربعين فرنكا أجرا ، أبلغها إلى ستين ، فوق ما كان ينفحها من الهبات . وظلت الآنسة فى خدمته ، أمينة على مصالحه ، وفية له ، أوفى ما تكون ربات البيوت

وكانت «ترابينارد » تحسن الظن بالفيلسوف ، فما يروعها منه إلالحاده ، واحجامه عن الصلاة طوال خمسة عشر عاما

ولد « ادريان سكست » بمدينة « نانسى » عام ١٨٣٩ . من رجل يتجر بالساعات . وكان الغلام متوقد الذكاء ، على أن هزاله واعتصامه بالصمت ، وبقاءه فى أحضان العزلة ، كل أولئك ، كان يحمل أصحابه ولداته ، على ظنهم ، أن باخلاقه شذوذا ، وبنفسه جفوة

ومضى الفتى فى دراسته ، متفوقا على أقرانه ، حتى إذا بلغ مرحلة الفلسفة بما يتفرع عنها من علم « المنطق » تجلت مواهبه وملكاته ، ولاح لاستاذه استعداده لعلوم ماوراء الطبيعة ، فاراده على ان يهيء نفسه لامتحان مدرسة «النورمال » . فأبى ، قائلا ، إنه اذا كان لابد له من صناعة ، فهو يؤثر صناعة أبيه . ولم يقتصد أبوه فى تأنيبه إذ كان يداعب الأمل ، شأن كل صانع أو تاجر فرنسى ، ان يغادر ابنه درج الجامعة ، ليتربع فى دست الوظيفة . وما أخذ أبواه عليه هفوة من الهفوات ، فما رؤى يوما يدخن ، ولا شوهد مرة يغشى مقهى ، أو يختلف الى ملهى ، أو يتأبط ذراع فتاة ، فكان مدعاة فخرهما ، ومعقد آمالهما . فلا عجب اذاهما نزلا على إرادته ، وان فاض بالحزن قلبهما .

وأبيا عليه الاشتغال بصناعة ، وإن يكن ساءهما أن لم يلتحق بوظيفة . وكذلك قدر لادريان سكست أن يقضي وقته بين ظهرانيهم ، مكبا على الدرس والمطالعة . وأقبل ، مدى عشر سنوات كاملات ، على دراسة الفلسفة الانجليزية والألمانية ، فى العلوم الطبيعية ، والرياضيات . واستوعب آراء كارليل وستيوارت مل ، وتين ، وريتان ، وريبو ، وعلى الجملة ، كل أساطين العلم ، وشيوخ الحكمة ، فى العصر الحديث

وفى عام ١٨٦٨ ، أخرج ابن صانع الساعات فى مدينة « نانسى » ، وقد بلغ التاسعة والعشرين من عمره ، كتابا يحمل هذا العنوان الغريب « روح الله » . ثم بعث به الى خمسة عشر شخصا لا يزيدون ؛ ولكن قدر له أن يحدث ضجة فى جميع البيئات ، ودويا هائلا بين كافة الطبقات

ووضع الكتاب على ضوء التحليل العلمى الذى قد يبلغ القسوة ، وفى ظل الانكار الذى يكاد يشارف حدود التعصب . إنه لم تكن له شاعرية « تين » ، ولا جفوة «ريبو» ، ولكنه قد جمع بين بلاغة الاول ، وعمق تفكير الثانى .

وأثار اهتمام الباحثين ؛ لأنه اصطدم بأدق مسألة من مسائل علوم ماوراء الطبيعة

وقد كان جائزا أن يظل الكاتب مغمور الاسم ، والكتاب خامل الذكر ، لولا أن اتيح له ، أن يتصدى للرد عليه ، مطران مستفيض الشهرة ، ويلمح إليه ، أحد رجال الدين ، فى خطاب له بمجلس الشيوخ ، تلميحا يشف عن الحنق ، ويتصدر لهدم نظرياته ، كاتب كبير فى إحدى المجلات ، فكانت تلك العوامل مجتمعة ، مثار اهتمام الشباب الذين

كانت تهب عليهم ، فى ذلك الحين ، عاصفة الالحاد . وتطغى عليهم موجة التنكر ، لما تواضعوا على تسميته بالآراء العتيقة ، واصطلحوا على اعتباره نظما بالية . فكانت تحتشد ، فى الأفق ، رعود الثورة وبروقها ، منذرة بالانفجار القريب

وكذلك قدر للمؤلف الجديد ، الذى وضعه صاحبه فى سكون الوحدة أن يصبح مثار الضجة فى بيئة الآراء العصرية . وفى الحق ، فقد مضت سنون لم يشهد الناس مثله ، قوة حجة ، وسعة اطلاع . على انه ، بينما اصبح اسم الكاتب فى باريس ، ملء الأفواه والأسماع ، فان نجاحه أثار الحزن فى قلوب ذوى قرباه . فقد اتيح لوالدته أن تقرأ بضع رسائل فى الصحف الكاثوليكية ، نقدا له ، فاسلمها ذلك الاطلاع الى اليأس ، وتوجس ابوه خيفة من فقدان حرفائه[1] فى بيئة الطبقة الارستقراطية بمدينة « نانسى » وثارت ثائرة الناس على الفيلسوف ، وانصبت الاحقاد على رأسه ، وأوشك أن يهجر أسرته ، لولا أن الغارة الألمانية ، والنكبة القومية التى تلتها ، قد صرفتا عنه أنظار أهله ، وبنى وطنه

ومات ابواه فى ربيع عام ١٨٧١ . وفى صيف العام قضت عمته نحبها . فما أقبل الخريف فى عام ١٨٧٢ حتى رتب شئون ميراثه ، وولى وجهه شطر باريس يزمع الاقامة فيها . وبلغ ايراده من نصيبه فى تركة ابيه وعمته ثمانية آلاف فرنك فى العام

وصحت عزيمته على ألا يتزوج ، ولا يغشى الأندية الخاصة ، ولا

---

(١) زبائنه

يختلف الى الاجتماعات العامة ، ولا يطمح الى ألقاب الشرف ، ولا يرنو إلى الوظائف ؛ ولا يجرى وراء الشهرة ، بل يكون شعاره فى الحياة : التنقيب عن الحقيقة !

ولو أنا القينا نظرة عامة على حياته اليومية ، لوجدنا فيه ، العامل الذى لا تفتر همته ، ولا يجد الوهن إلى عزيمته سبيلا . فاذا أقبلت الساعة السادسة ، صيفا أوشتاء ، الفيته مكبا على مكتبه ، وما تزود الا بقدح من القهوة . فاذا كانت الساعة العاشرة ، تناول طعام الفطور ، على عجل . وما هى الا لمحة حتى تضمه جوانح حديقة النباتات . فيلبث فيها حتى ينتصف النهار . فاذا بدا له أن يسرف فى الرياضة ، تهادى فى الطريق الى « نوتردام » . وكان أحب شىء الى قلبه ، أن يطيل المكث ، أمام محال القردة ، وحظيرة الفيل

وما كان يروع الأطفال والخادمات ، إلا أن يروا رجلا يتضاحك من وحشية القردة تارة ، ومن قحتها طورا ، وما كان هؤلاء وأولئك ليبلغوا مناط الفكرة التى تطوف بخاطر الفيلسوف ، اذ كان يوازن بين المهزلة التى يمثل الناس فصولها ، والمهزلة التى تلعب القردة أدوارها . كما كان يفاضل ، بين الحماقة التى يغرق فيها الانسان الى أذنيه ، والحكمة البالغة التى توافرت لذاك الحيوان الذى يزعم الزاعمون أنه كان سيد العالم

فاذا انتصف النهار انقلب « مسيو سكست » الى ، بيته فلبث يعمل حتى الساعة الرابعة . وفيما بين الرابعة والسادسة ، كان يستقبل ، ثلاث مرات فى الأسبوع ، زائريه ، وكلهم أو جلهم ، من الطلبة ، والاساتذة ، الذين

توفروا على مثل دراسته ، والأجانب الذين تجتذبهم شهرة أصبحت تدوى فى جوانب أوربا بأسرها

وكان يبرح البيت ، ثلاث مرات فى الأسبوع ، ليؤدى واجب الزيارة لبعض صحبه . فاذا جاءت الساعة السادسة تناول طعام العشاء ثم خرج للنزهة ، حتى يبلغ محطة « اورليان » . فاذا كانت الساعة الثامنة انحدر الى بيته فأخذ فى ترتيب رسائله ، أو توفر على المطالعة . فاذا أقبلت الساعة العاشرة أطفأ الأنوار ، وآوى الى مضجعه

تلك الحياة التى تماثل حياة الراهب فى الدير ، والناسك فى الصومعة ، لم تكن تتخللها راحة اسبوعية إلا يوم الاثنين . فلقد آثره الفيلسوف على يوم الأحد ، اذ تتدفق جموع المتنزهين ، وتطغى موجتهم على الريف . فاذا أقبل يوم الاثنين ، رأيته يبكر ، فيستقل قطار الصباح ، فلا يغادر الضواحى إلا اذا أرخى الليل سدوله

كذلك مضى خمسة عشر عاما ، لم يبدل خلالها نظام حياته مرة واحدة فما قبل دعوة الى تناول الطعام فى غير بيته ، ولا اتخذ له مقعدا فى ملهى

وما كان ليقرأ صحيفة قط ، ملقيا أمور الاعلان ، على عاتق من يتولى طبع مؤلفاته . ولو اغرقه كاتب فى طوفان من المديح ، لما كلف نفسه مؤونة الشكر له على ما اسدى من حمد

وماكان يحفل بالسياسة فى كثير أو قليل ، حتى لقد آثر ألا يتسلم تذكرة الانتخاب

ويجمل بنا ، كى تتم تصوير تلك الشخصية الفذة ، ان نقول ، ان الرجل قد فصم كل عروة تربطه بأهله . وكانت تلك القطيعة ترتكز على نظرية يدين بها الفيلسوف فى اعماق نفسه . ولم لا ، أليس هو القائل ، فى مقدمة كتابه الثانى « تشريح الارادة » : « ينبغى لكل من يود أن يعلم الحقيقة ، ويجهر بها ، فى عالم العلوم النفسية ، ان يتحلل ، قدر المستطاع ، من قيود الروابط الاجتماعية »

ولمثل هذا الباعث ، كان ذاك الرجل الوديع الذى لم تجاوز ملاحظاته على خادمته طوال خمسة عشر عاما الثلاث عـــدا ، يقبض يده عن الاحسان . فهو يؤمن بقول « سبينوزا » : « الرحمة ، فى نظر الحكيم ، سيئة لا خير فيها » وشأن « ادريان سكست » فى ذلك شأن « اميل لتريه » فهو خليق ان يلقب بالقديس اللادينى ، اذ له من القديس خلقه . وان لم يكن له منه ايمانه ونسكه . فهو يجنح الى اعتبار الدين ، مرضا من أمراض الانسانية متوهما أنه يسلم المرء الى التعلق بالخيال ، ويوسع مسافة الخلف بينه وبين نواميس الطبيعة !

ومالبث أن طالع الناس بكتاب جديد فى ثلاثة مجلدات دعاه « نظرية العواطف » . ولولا حرية الفكر والقلم ، لضاقت صدور الناس بما احتواه من وصف جرىء ، ولجعلوه طعاما للنار ، ولزجوا بصاحبه فى غياهب السجون

فهو يرى ، الهوة ، بين الدين والعلم ، بعيدة ، حتى لا يستطاع تضييق

مابينهما من خلاف . ويذهب إلى أن تهذيب مشاعرنا ، وصقل أخلاقنا ، إنما يرجع إلى عوامل التطور

ويخيل إلى ، أن الرجل ، ما كان يحفل بالعواطف ، أو يأبه للمشاعر . نعم ، لقد كان يحب أمه ولعلّ هذا الحب هو العاطفة الوحيدة التى دبت بين جوانحه

ولقد كانت روحه مشربة بالعطف ، متشبعة بالتسامح ، حيال جميع الناس ، عطفا وتسامحا مبعثهما تلك الغريزة التى توحى إليه الرحمة حتى بالجماد ، فلا يزحزح الكرسى إلا فى هوادة ، ولا ينقل الأثاث إلا فى رفق

على أنه ما أحس يوما بالحاجة إلى حنان يغمره ، وعطف يحيط به ، وحب يفيض عليه ، وإخلاص يتجلى له ، وعائلة تحوطه بالعناية والرعاية ، أستغفر الله ، بل ما أحس بالحاجة إلى الصداقة فى أبسط مظاهرها

وما توثقت الروابط بينه وبين نفر من العلماء ، إلا ليحاج هذا فى علوم الكيمياء ، أو ليجادل ذاك فى الرياضيات العليا ، أو ليناقش الآخر فى أمراض المجموعة العصبية

وما كان يعنيه من جماعة العلماء أن تكون لهم زوجات ، أو يكون لهم أولاد ، أو يكونوا منهمكين فى البحث عن المناصب والوظائف وإنما كان كل ما يعنيه منهم ، جانب البحث العلمى

وياعجبا لفيلسوف تلك صورة حياته ، أن يشعر بالسعادة فى أعماق نفسه !

تمثّل أمامك ذلك الرجل ، وصوِّر لنفسك تلك الحياة ، ثم تصور

مبلغ الأثر الذى يتركه حادثان جاءا متعاقبين ، فى يوم واحد : فأما أولهما ، فاعلان موجه إلى المسيو « ادريان سكست » ، بالحضور إلى مكتب المسيو « فاليت » قاضى التحقيق لسؤاله عن الوقائع التى تدعو الضرورة لسماع ما يعلم عنها . وأما الثانى فبطاقة تحمل اسم « مدام جرسلو » تطلب فيها أن يتفضل فيأذن لها بمقابلته حوالى الساعة الرابعة من ظهر الغد ، « لتحدثه عن الجناية التى اتهم فيها ظلما ، ابنها السىء الطالع » .

ولقد عرفت أن الفيلسوف ما كان يقرأ الصحف أبدا . ولو فعل ، لرآها ، طوال خمسة عشر يوما ، تفيض أنهارها تحدثا بقصة الشاب « جرسلو » التى طغت عليها مآسى الحياة فتعثرت بها ذيول النسيان

وإذ أعوزته معلومات الصحف ، فقد عز عليه أن يفهم مرمى دعوة الحضور أمام قاضى التحقيق ، وفحوى بطاقة الوالدة التى تلتمس مقابلته

على أن العلاقة بين دعوة الحضور ، وكلمة الوالدة ، جعلته يرجح الارتباط بين الواقعتين

ثم استعرض الفيلسوف الماضى ، فعرضت له ذكرى شاب اسمه « روبير جرسلو » عرفه خلال العام الماضى ، فى ظروف عادية ، ولم يكن من شأن تلك الظروف أن تثير فى نفسه فكرة قضية جنائية . ولذا ذهب ضياعا كل ما قدر من فروض . فلبث يقلب النظر فى الدعوة تارة ، وفى البطاقة طورا ، وظل صريع القلق المؤلم ، والاضطراب الممض ، شأن أولئك الذين ألفوا الحياة النظامية فاذا نزلت بهم نازلة ، أو ألم بهم ملم ، أو فوجئوا بحادث غير

مالوف ، تصدعت نفوسهم ، وتخاذلت قواهم وضاق أفق الحياة فى عيونهم

ومن هو « روبير جرسلو » ؟ — ان المسيو سكست ليذكر فيما يذكر أنه قرأ ذلك الاسم ، لأول مرة ، منذ عامين ، فى ذيل بطاقة مصحوبة بنسخة خطية . عنوانها « بحث فى الشخصية المزدوجة » يتوسل صاحبها إلى الكاتب العظيم أن يلقى نظرة على باكورة تفكيره . وأضاف المؤلف إلى توقيعه : طالب فلسفة بمدرسة « كليرمون فيراند »

وكانت النسخة الخطية تتضمن ستين صفحة ، تنم عن الذكاء المبكر النافذ إلى صميم الحقائق ، فوق إلمامها التام بأحدث النظريات العصرية فى علم النفس ، وتكشفها عن قدرة فى التحليل ، اضطرت مسيو سكست إلى الرد عليها بخطاب مسهب مستفيض . فجاءته كلمة شكر معلنة بأن ذلك الشاب سوف يقدم إلى باريس لتأدية الامتحان الشفوى بمدرسة « النورمال » وبذلك يتاح له شرف المثول بين يدى الأستاذ

وما لبث يوما حتى رأى شابا فى العشرين من عمره ، له عينان سوداوان ، يشع منهما نور الذكاء ، فيفيض على وجه شاحب . تلك الصورة هى التى ارتسمت فى ذهن الفيلسوف

على أنه لم ينس الحديث الذى جرى بينه وبين « روبير جرسلو » فما راعه منه إلا وفرة اطلاعه ، وقوة تدليله المنطق . ولقد ملأ سمع الفيلسوف قوله : « كلا ، يا سيدى ، أنت لا تعلم منزلتك من نفوسنا ، ولا الشعور الذى يتملكنا حين نستوعب . مؤلفاتك . إنك أنت الذى تتقبل الحقيقة

كاملة ، تخليق بنا ، نحن الشباب ، أن نؤمن بآرائك . أرأيت إلى حديثك عن « الحب » فى كتابك « نظرية العواطف » ، كيف أصبح قبلة تفكيرنا ، وأمسى كعبة آمالنا ، وبات كتاب الفرض الذى نقدسه إلى أقصى ما يكون التقديس ؟

انهم فى المدرسة ليحولون بيننا وبين هذا الكتاب . ولكنى أحرص عليه حرصى على قنية ثمينة . ولقد جاءنى نفر من إخوانى ، حين غادروا المدرسة ، لينقلوا فصوله . . . »

وإذ كان كل مؤلف يخفى فى أعماق نفسه شيئا من الكبرياء ، ومهما يكن من إخلاص المسيو سكست ، فليس من شك فى أن تقديس طائفة من الطلبة لآرائه العلمية ، ذلك التقديس الذى عبر عنه واحد منهم أصدق تعبير ، قد داعب كبرياء الفيلسوف

والتمس « روبير جرسلو » شرف الزيارة مرة أخرى ، وإذا كان قد أعلمه باخفاقه فى امتحان مدرسة « النورمال » فانه صارحه بما اعتزم من مشروعات . وسأله المسيو سكست ، على غير مألوف عادته ، عن حياته الخاصة . فعلم منه أنه ابن مهندس ، مات ولم يخلف ثروة . فكفلته أمه ، وقامت على تربيته ، يبذل كثير من التضحيات . وقال روبير لأستاذه : « لن أرضى بعد اليوم أن أكون كلا على والدتى ، فلقد صح عزمى على نيل « اجازة التعليم » هذا العام . فاذا ظفرت بها التمست منصبا لتدريس الفلسفة فى إحدى الجامعات ، وسأعنَى بوضع كتاب عن ازدواج الشخصية

قد أطلعتك على جانب منه . ولشد ما أبرقت أسارير الشاب حين أخذ يرسم برنامج حياته المقبلة

ولقدجاءت هاتان الزيارتان فى شهر اغسطس من عام ١٨٨٥ . فلما أقبل شهر فبراير من عام ١٨٨٧ كان المسيو سكست قد تلقى خمسة أو ستة خطابات من تلميذه الشاب . أخبره فى واحد منها أنه التحق بوظيفة مدرس فى أسرة من أسر النبلاء انتجعت الى جبال « أوفرنى» لقضاء فصل الصيف على ضفاف بحيرة « ايدات » ، أروع البحيرات جميعا وابدعها

وعلى الرغم من انشغال المسيو سكست باصلاح مقال « للمجلة الفلسفية » جد فى البحث عن الرسائل التى وردت إليه من ذلك الشاب . وارجع البصر فيها كرتين فما وجد فى ثناياها إلا تأملات عقلية ، وبضعة أسئلة عن الكتب الجديدة بالمطالعة . فما عسى أن تكون العلاقة بين هذا و بين القضية الجنائية التى تتحدث عنها تلك الوالدة ؟

وما من شك فى أن ذلك الفتى كان قد استرعى نظر الفيلسوف ، وآية ذلك أن اللغز الكامن فى ثنايا الدعوة الموجهة إليه للحضور إلى قصر العدالة ، والسر المنطوى تحت كلمة الأم التى باتت فريسة لليأس ، قد أسلماه للاضطراب ، فتجافى جنبه عن المضجع ، وقضى شطرا من ليلته يقظا يقلب وجوه الرأى

وللمرة الأولى ثار الفيلسوف فى وجه خادمته الآنسة « ترايينارد » من أجل إهمال هين . فلما أقبلت الساعة الواحدة بعد الظهر ، مر بحارس البيت

« الأب كاربونيه » ودلائل القلق بادية على وجهه ، وهو الهادىء الساكن فاسترعى ذلك نظر الحارس ، كما استرعته ورقة الدعوة إلى الحضور ، فتحدث إلى زوجته ، وأفضى بالأمر إلى أهل الحى جميعا

قال الأب « كاربونيه » لزوجته وهو يحاورها : « إن الفضول لا يدفعنى إلى تلمس الوقوف على شئون الغير ، ولكنى أود ، بجدع الأنف ، أن أعلم ماذا تريد العدالة من المسكين مسيو سكست الذى يهبط فى تلك الساعة فيضرب فى الأرض على غير هدى ، ويهيم على وجهه فى الطرقات . . . »

وقالت فتاة لأمها ، وهى جالسة الى صندوق الحساب ، فى حانوت بائع الخبز : « يا عجبا لمسيو سكست كيف غَـيَّر موعد رياضته ! أكبر الظن أنه ذاهب للحضور فى قضية ميراث »

وقال طالب لصاحبه وهو يحاوره : « ماأرى العدالة إلا مرهقة مسيو سكست من أمره عسرا . تراه فتحسبه عفا لا يتعلق بذيله غبار . فاذا به غارق فى الدنس إلى أذنيه . وكلهم من هذا الطراز البغيض »

وقالت زوجة أستاذ فى « كوليج دى فرانس » لزوجها « حقا لقد تضاعف جفاء خلقه ، فلا يقرئنا السلام . ولقد ترامى إلى ، أنهم سيقدمونه للمحاكمة من أجل كتبه ، وانهم لفاعلون خيرا »

وكذلك استرعى مسيو سكست أنظار أهل الحى جميعا . ولو قدر له أن يدرك ذاك الفضول لعنى به كما يعنى بمجلد يضم بين دفتيه خلاصة الفلسفة الجامعية ، ولكنه جهله ، فمضى فى طريقه لايلوى على شىء

قضية جرسلو

كان الفيلسوف الشهير ، المثل الأعلى ، للدقة فى كل شىء . لذلك قدم إلى دار العدالة ، قبل الموعد المضروب ، فى ورقة الدعوة إلى الحضور ، بخمس دقائق . ولبث نصف ساعة يترقب قبل أن يدعوه قاضى التحقيق ، لسماع أقواله . ولم يكن بدار المحكمة غير خمسة أشخاص أوستة . وآثر الحكيم أن يجلس إلى جانب تاجر وامرأته جىء بهما للتحقيق فى حادث آخر ، فما استطاعا أن يكتما اضطرابهما من جراء الاصطدام بالعدالة لأول مرة . على أن مظهره ، بوجهه الأجرد ، وعينيه المحتجبتين خلف العوينات السوداء ، وردائه الرسمى ، كل أولئك قذف الروع إلى قلبيهما ، فانتبذا مكاناً قصيا ، وأخذا يتهامسان

قال الرجل لامرأته : « أكبر الظن أنه من رجال الخفية » وقالت المرأة ، وهى تلقى نظراتها على تلك الشخصية المحجبة بشتى الأستار ، وذاك الوجه الجامد ، وقد ملئت منه رعبا : « لله ! كم له من مظهر كاذب ، وكم هو مخوف مرهوب ! »

وبينما كان يمر ذلك المنظر الذى يثير الضحك ، دون أن يحسه ذاك الذى اتخذ دراسة القلب الانسانى صناعة له ، لا ينى عن التغلغل فى صميمه ، ولا يفتر عن تعرف ميوله ونزعاته ، بل دون أن يشعر ، بمن إلى جانبه ، كان قاضى التحقيق يتحدث إلى صاحب له فى غرفة مجاورة . علقت بجدرانها صور نفر من كبار المجرمين ، قد اتخذها مسيو « فاليت » غرفة

للتجمل والزينة ، وحجرة للتدخين ، ومكانا يفرج فيه عن صدره ، بالثرثرة البريئة ، بمنجاة من سمع كاتب التحقيق وبصره

ولم يكن ذاك القاضى ، قد ناهز الأربعين ، وهو وضىء المحيا ، متأنق فى ملبسه ، يتجمل بالخواتم فى أصابعه ، وعلى الجملة فقد كان من رجال المدرسة الحديثة . وتناول الورقة التى خط عليها الحكيم اسمه فى صورة واضحة جميلة ، ثم أطلع صديقه عليها ، وكان رجلا لا يعنى فى حياته إلا بلذاذات الحياة ، طالبا إليه أن يمعن النظر فيها ، ثم ينبئه عن شخصية صاحبها ، ولم يكد يتأملها حتى صاح قائلا : « أقدم إليك تهانى الحارة . فالحق إنها لفرصة ذهبية أن يتحدث المرء إلى ذلك الرجل . أرأيت إلى الفصل الذى عقده عن الحب فى أى كتاب لا أدرى ؟ . . . ما أراه إلا رجلا عليما باهواء النساء . لكن عم تسأله ؟ »

فقال القاضى : «سأطلب إليه أن يدلى بمعلوماته عن جناية «جرسلو» . فلقد استقبل الشاب غير مرة ، والدفاع طلبه ، ليكون شاهد نفى فى الدعوى ، ولقد انتدبت لسؤاله »

فقال له صاحبه : « ما أشوقنى إلى رؤيته ! »

فأجاب القاضى : «ان كان هذا يسرك فما أيسره لك . فسأدعوه للدخول ، وحينئذ يتاح لك أن تراه . . . وعلى أية حال فقد اتفقنا أن نلتقى هذا المساء فى الساعة الثامنة لدى «فيجون» ، وأكبر الظن ان «كلاديس» ستكون هناك» .

فقال له صاحبه : « اتفقنا . . . أو تعلم كلمتها الأخيرة إلى « كلاديس » ؟

لقد كنا نلوم امامها « برسى » ، لأنها تخدع « جوستاف » فقالت : « لا مندوحة لها عن اتخاذ عاشقين فانها تنفق كل عام ضعف ما يبذله عاشق واحد . . . »

فقال القاضى : « انى أعتقد أن تلك المرأة كفيلة بتلقين فلسفة الحب الى « سكست » ، ومن لف لفه فى العالم بأسره

وأرسل الصديقان الضحكات عالية . ثم أمر القاضى باستدعاء الفيلسوف ، فصافح الصديق القاضى قائلا له : «إلى اللقاء هذا المساء ، لدى الساعة الثامنة مساء » ولكى يشبع فضوله نظر إلى وجه الكاتب الجليل ، وقد سبقت له به معرفة إذ كان قد قرأ بعض مقتطفات من كتابه « نظرية العواطف » فى مقالات الصحف . فما راعهما منه إلا أن شهدا فيه الرجل الحيى الخجول ، وهما اللذان طالما ابرزه لهما خيالهما فى صورة رجل صلب العواطف ، متحجر القلب ، لا ينفذ اليه شعاع رحمة ، فتبادلا نظرة الدهش والذهول وانطبعت على شفتيهما الابتسامة

وما لبث ان خرج الصديق . وأشار القاضى إلى الفيلسوف بالجلوس . ثم بدت على وجه قاضى التحقيق أمارات الجد والخطورة ، وحاول جهده أن ينساب فى ضمير الماثل أمامه . وأيقن الفيلسوف ان تطيره قد صدقه ، إذ لمح الملف الضخم الذى تناوله مسيو « فاليت » مكتوبا عليه بالخط العريض « قضية جرسلو »

وساد السكون جو الغرفة حتى لا يسمع إلا حفيف الأوراق ، وما

لقلم كاتب التحقيق من صرير . وتأهب الـكاتب لتدوين المحضر فى غير مبالاة شأن هؤلاء الـكتاب الذين الفوا ان يكونوا آلات صماء حيال تسجيل أروع المآسى المطروحة امام محاكم الجنايات . لا تمتاز لديهم قضية من قضية ، أوجناية من أخرى ، كما لا يمتاز لدى اللاحد ميت من ميت ، أو لدى خادم المستشفى ، مريض من مريض

وقال القاضى : « سأوفر عليك ياسيدى الاسئلة المألوفة . . فمن الاسماء مالا ينبغى جهلها ، ومن الرجال من لا يليق تجاهلهم ... » فلم يَحْنِ الفيلسوف رأسه ردا على هذه التحيــة ، فقال القاضى فى سره : « ليس ذلك مألوفا فى التقاليد الاجتماعية ، ولا سائغا فى الاوضاع الادبية ، فاغلب ظنى ان الرجل من جماعة الأدباء الذين يرون حقا عليهم ان يغمرونا باحتقارهم » . ثم جهر قائلا : « والآنَ أبلـغُ الواقعة المبررة للدعوة التى رأيت لزاما على أن اوجهها اليك . . . انت تعلم الجناية المتهم فيها الشاب روبير جرسلو »

فاعتــدل الفيلسوف فى جلسته ، بعد أن كان قد اخذ الأهبــة للاصغاء لاقوال القاضى ، واتـكأ بذراعه على الـكرسى ، وأسند ذقنه الى يده ، ووضع سبابته على خده ، شأنه حين يخلو الى نفسه ، فيغرق فى طوفان التفـكير ، ثم قاطع القاضى قائلا : « عفوا يا سيدى ، فليس لدى معلومات عنها اطلاقا »

فاجاب القاضى : « لقد ذكرت كافة الصحف وقائع تلك الجريمة بدقة لم نعهدها فى طائفة سادتنــا الصحفيين . » ثم جاش بنفسه : « انه يتحصن بالرياء ، ليتقن تمثيل دوره . فياللحماقة ! »

فقال الفيلسوف : « معذرة ياسيدى فانى لا اقرأ صحيفة ما »

فتنفس القاضى الصعداء وهو فى موقف مزيج من التهكم والذهول ، وقال فى لهجة تشف عن الحنق : « حسن ياسيدى ، سألخص لك الاتهام فى بضع كلمات ، وأنا شديد الأسف على انك غير واقف على ما جريات حادث يمس مساساً خطيرا مسئوليتك الأدبية ، ان لم ينل مسئوليتك القانونية . . . » وهنا لم يسع الفيلسوف الا أن هز رأسه ايذانا بالقلق الذى ساوره ، والاضطراب الذى ملك عليه مشاعره ، فتهلل وجه القاضى ، وقال : « انك تعلم ، على أى حال ، ياسيدى ، من هو روبير جرسلو ، وما هو المركز الذى كان يشغله لدى « الماركيز جوسات راندون » . فان لدى ، بملف الدعوى ، صورا لخطابات عدة بعثت بها اليه فى قصر جوسات ، وهى ناطقة بأنك كنت القائد العقلى ، والزعيم الروحى ، للمتهم . » — فحرك الفيلسوف رأسه كرة أخرى . — « وانى أسائلك أن تتفضل فتكاشفنى عما إذا كان ذلك الشاب قد خاطبك بشأن حياة تلك الاسرة ، وفى أى أسلوب . . . ولعلى لا أحيطك علماً بأمر أنت تجهله . إذا ما قلت لك إنها كانت تتألف من أب ، وأم ، وابن يعمل ضابطا فى الجيش ، بالفرقة التى تعسكر الآن فى ثكنات لونيفيل ، وابن ثان كان تلميذا لجرسلو ، وفتاة عمرها تسعة عشر ربيعا اسمها الآنسة شارلوت . وكانت تلك الفتاة خطيبة للبارون دى بلان وهو ضابط بنفس الفرقة مع أخيها . وكان لابد من ارجاء الزواج ، بضعة أشهر ، لأسباب عائلية ، لا علاقة لها بالدعوى على الاطلاق . وأخيراً حدد له نهائيا اليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر الماضى . ففى صباح الأسبوع السابق لقدوم خطيبها مع الكونت

اندريه ، شقيق الآنسة شارلوت ، دخلت عليها خادمتها فى الساعة المعتادة ، فالفتها ، فوق مضجعها ، جثة هامدة . . »

وتوقف القاضى ، ولبث يتصفح ملف التحقيق ، وهو يرنو بعينه الى الشاهد ، فيبصر بالذهول ، وقدار تسم على وجهه ، بصورة لا تدع مجالا للشك فى اخلاصه ، فاسترعى ذلك دهشة القاضى ، وقال فى نفسه : « ان الرجل لا يعلم من الأمر شيئا ، فياله من أمر مدهش عجيب .. » . وظل يتصفح وجه ذلك الرجل الشهير بينا يقلب صحائف الدعوى غير مبال . على أنه كانت تعوزه بعض البيانات عن تلك الشخصية ليحيط بها خبرا ، فقد كان صاحبها فى ميدان الأفكار ، قوياً لا يبارى ، وفى عالم الآراء ، قادرا لا يجارى ، وفى دنيا النظريات المجردة ، عالما لا يشق له غبار ، ولا يصطلى له بنار ، فاذا جاء الى ميدان الوقائع ، الفيته الغر الساذج ، والحيي الخجول ، لا بل الرجل الذى يصبح ، ضحكة الضاحكين ، ويمسى سخرية الساخرين

ومضى القاضى فى تلخيصه ، ونفســـية فيلسوفنا لديه ، من الطلاسم والمعميات ، وعقليته من الاحاجى والالغاز ، فقال : « وعلى الرغم من أن الطبيب الذى استدعى على عجل ، لم يكن الا طبيبا متواضعا من اطباء الريف ، فانه لم يتردد ، لحظة واحدة فى الجهر ، بأن مظهر الجثة ، صريح فى الدلالة ، على أن الموت غير طبيعى . فقد كان الوجه اغبر ، والاسنـان مصطكة ، والعينان بارزتين ، والجسم متقوساً ، تقوسا وصل بين الرأس والقدمين ، وعلى الجملة فقد كانت الدلائل كلها ناطقة بأن سبب الموت هو التسمم

بالستكرنين . ووجدت زجاجة موضوعة على المائدة بها بقايا جرعة دواء كان لابد للآنسة شارلوت من تناولها غداة يوم موتها فى المساء ، أو أثناء الليل ، على مألوف عادتها ، لتدفع عنها الارق ، فقد مضى عليها حوالى عام وهى تعـانى آلام مرض عصبى . ومالبث الطبيب ان حلل القطرات التى بالزجاجة حتى وجد بها آثار « الجوز المقىء » . ولاإخالك الاعالما بأن ذلك هو الشكل الذى يأخذه ذلك السم الناقع القتال فى الطب الحديث . وعثر البستانى على زجاجة صغيرة ليست عليها كتابة ما بها بضع قطرات من سائل لونه اسود ، ملقاة تحت نوافذ الغرفة . ولقد القيت الزجاجة عمدا لتتحطم ، ولـكن صادفت ارضا رخوة ، فظلت سليمة ، وتبين ان القطرات التى بها هى بقايا « الجوز المقىء » : فلم يبق أثر للشك فى أن الآنسة شارلوت ماتت مسمومة .

وجاء التشريح يؤيد الدعوى . وهنا كان التساؤل : هل نحن حيال واقعة انتحار ، أم حادث قتل ؟ . . . وكيف السبيل الى فـكرة الانتحار وبواعثه منعدمة ؟ وفى الحق ، فما الذى كان يبعث شابة على ان تقتل نفسها ، وقد اوشكت ان تزف الى رجل رائع ارتضته زوجا لها ؟ ذلك فرض لا يسيغه العقل ، فينبغى اذن استبعاده من دائرة الفروض . وكيف تجهز على نفسها دون ان تخط كلمة ايضاح تلقى شيئا من الضوء على هذه المأساة ، وبغير أن تترك كتابا يحمل عبارات الوداع الى أهلها ؟ ! ... ومن ناحية اخرى كيف حصلت على السم ؟ ولا جدال فى أن هذا البحث قد أفضى بالعدالة الى الاتهـام الذى يشغلنا اليوم . فلما سئل صيدلى القرية ، قرر ان مدرس القصر ابتاع منه « الجوز المقىء » لستة أسابيع خلت ، تحت ستار الدعوى بانه فى حاجة اليه لعلاج مرض

المعدة . وكان هذا المدرس قد سافر الى « كليرمونت » بدعوى انه ذاهب ليرى أمه المريضة ، فى ذات اليوم الذى اكتشفت فيه الجثة ، زاعما أنه استدعى ببرقية . ولقد تضافرت الأدلة ، على أن البرقية لا وجود لها الا فى خياله ، وان خادماً رآه فى ليلة ارتكاب الجريمة خارجا من حجرة الآنسة شارلوت ، وأخيراً فقد نهض الدليل على أن زجاجة السم التى اشتريت من الصيدلى ، ووجدت لدى الشاب ، قد أفرغ نصفها ثم ملئت ماء ، ليتم نقصها ، درءاً للشبهات . وشهد الشهود بأن روبير جرسلو كان دائم الاتصال بالفتاة رغم أهلها . بل لقد اكتشف كتاب بعث به اليها منذ أحد عشر شهراً وجاء الكتاب مثبتا أول خطاه فى سبيل مطارحتها الهوى . وقرر الخدم ، وعززت شهادتهم بأقوال تلميذ المدرس نفسه ، أن العلاقات ، بين الآنسة شارلوت وبين الفتى ، كانت متراخية فى الثمانية الأيام الأخيرة إلى أقصى حدود التراخى ، بعد ان كانت ودية إلى أبعد غايات المودة ، وبلغ من اعراضها عنه أن أمسكت عن رد التحية . فاستنتجوا من تلك الدلائل مجتمعة الافتراض التالى : أن الفتاة قد شغفت روبير جرسلو حبا ، فلما هام بحبها ، وعز عليه طلابها ، تهدمت قصور آماله ، فاختمرت فى رأسه جريمة الاجهاز عليها ، فقتلها سما ، ليحول دون زواجها بآخر . وأيد هذا الافتراض — أكاذيب الفتى حين سؤاله . فقد أنكر بتاتاً أنه كتب الى الآنسة شارلوت . فقذفوا فى وجهه بكتابه إليها . ووجدوا بالموقد الذى بغرفة المجنى عليها ، بقايا أوراق محترقة أضرمت النيران فيها ليلة الوفاة ، ومن بينها نصف غلاف خطاب بخط المتهم . وأنكر أنه توجه فى تلك الليلة الى غرفة الآنسة شارلوت ، فواجهوه

بالخادم الذى رآه خارجا منها ، فشهد الخادم برؤيته ، وعزز شهادته بالاعتراف بانه هو أيضا كان يغشى غرفة خادمة تعلق فؤاده بحبها . هذا كله إلى ان جرسلو لم يستطع أن يبرر ابتياعه الجوز المقىء عابثا بما للصيدلى به من ثقة . ولقد قام الدليل على انه لم يشك من قبل المـا بالمعدة . ثم انه لم يعلل تلك البرقية الزائفة التى انتحل وصولها اليه بعلة مقبولة ، ولم يوضح بواعث رحيله على جناح السرعة ، وتوجت هذه الادلة بدليل آخر لاترقى الشكوك اليه ، هو اضطرابه وتخاذله لدى اكتشاف مادة السم . وفوق ذلك كله فيس هناك باعث ، على ارتـكاب الجريمة ، غير اضطرام جذوه الانتقام فى صدر عاشق خابت آماله ، فقد وجدت حلى المجنى عليها تامة ، ونقودها كاملة ، ولم توجد بالجثة آثار مقاومة اطلاقا . فارتسمت للجناية الصورة التالية : دخل جرسلو غرفة الآنسة شارلوت علما منه بانها تنام عادة لغاية الساعة الثانية ، ثم تستيقظ لتتناول جرعة الدواء . فمزج هذه الجرعة بكمية من « الجوز المقىء » تكفى للقضاء عليها فى لحظة ، فما قرت بجوفها ، حتى قضت نحبها دون أن تقوى على استدعاء أحد لاسعافها ، ثم لاذ بالفرار قبل اكتشاف الجثة خشية افتضاح امره . فاما الزجاجة التى وجدت بالحديقة فارغة ، فلابد ان يكون القى بها من نافذة غرفتـه المشرفة على غرفة الآنسة شارلوت . واما الزجاجة الأخرى ، فقد ملأها ماء ، تضليلا للمحققين وتغريرا ، كما يفعل الناشئون فى الاجرام . وعلى الجملة ، فان جرسلو معتقل اليوم فى سجن «ريوم» وسيقدم الى محكمة الجنايات فى دور شهر فبراير ، أو فى أوائل شهر مارس ، لاتهامه بانه قتـل الآنسة شارلوت بالسم

وضاعف مسلكه منذ اعتقاله الادلةالساحقة القائمة عليه . فلقد تحصن بالصمت المطلق ، رغم افتضاح اكاذيبه ، وابى ان يجيب على ماوجه اليه من اسئلة ، زعما منهانه برىء ، ليس عليه ان يدافع عن نفسه . ورفض رفضا باتا انابة محام يذود عنه ، واستسلم للحزن العميق استسلاما لا يدع مجالا للشك فى أنه أصبح صريع وخزات الضمير وأقبل على المطالعة ، والكتابة ، فى مسائل فلسفية بحتة ، عله يمحو الاثر السىء الذى تركه حزنه فى النفوس ، وليدلل على انه حر العقل ، طليق الفكر ، لم تلوث يده بجريمة ، ولم يقدم على إزهاق روح بريئة ، وتلك قدرة مسرحية غريبة من شاب فى مستهل العقد الثالث من حياته . وان طبيعة مايشغل ذهن المتهم ، بعد هذا الشرح الوافى ، تفضى بى ، ياسيدى ، الى ذكر الباعث على تمسك والدة ذاك الشاب بسماع شهادتك فى قضيته . وإذا كان من الطبيعى ان تثور تلك الام ضد البديهيات ، واذا كان الحزن يكاد يجهز عليها ، فانها لم تستطع ان تغالب اصرار ولدها على التزام الصمت . ولقد كانت مؤلفاتك ومؤلفات بعض علماء النفس الانجليز هى كل ما طلب ، وكان لمؤلفاتك فى مكتبته الحظ الاكبر من عناية بها ، وانهماك فى مطالعتها ، وقتلها بحثا وتمحيصا ، وليس ادل على ذلك مما خطه بها من الشروح والتعليقات التى كانت تربو فى بعض الاحيان على الاصول والمتون . . . ومن ذلك تستطيع ان تحكم . . . »

وبينا كان المسيو فاليت يتحدث ، قدم الى الفيلسوف نسخة من كتاب « روح الله » ففتحه اعتباطا ، فما راعه الا أن رأى قبالة كل صحيفة مطبوعة ، صحيفة مكتوبة بخط المتهم ، تفيض شرحا وتعليقا ، وما هاله الا أن لحظ

التشابه التام ، بين خطه ، وخط المتهم ، وان بدا الاخير اكثر اضطرابا . فأثار هذا التشابه دهشة الفيلسوف ، وبعث فى نفسه شعور الالم ، فطوى الكتاب ورده الى القاضى ، قائلا : لا اكتمك ياسيدى أنى مذهول مما أفضيت به الى وإنى لا اخفى عنك انى لا استطيع ادراك العلاقة بين هذه الجناية وبين كتبي أو شخصى ، كما لا استطيع فهم طبيعة الشهادة التى يمكن أن يطلب منى أداؤها »

فقال القاضى : «ذلك امر هين . فمهما تكن الأدلة القائمة على اتهام روبير جرسلو ، فانها لاتقوم الا على فروض ، والقرائن على ارتكابه الجريمة قوية ، لكن ليس هناك يقين ثابت . من ذلك ترى ياسيدى ، إذا شئت أن أن استخدم لغة العلم الذى تبرز فيه ، أن المسألة النفسية هى التى ستسود القضية بأسرها . نعم ، سيكون محل التساؤل : ما هى الافكار التى كانت تتسلط على ذهن ذلك الشاب ، وتستولى على مشاعره ؟ وماذا كان خلقه ؟ فلو كان معنيا بدراسة المسائل المجردة ، فان شبهات اتهامه تتضاءل وتنكمش ... » . وهنا بدت على القاضى دلائل عدم المبالاة فلم يفطن الفيلسوف الى الحبالة التى نصبت له . ولم يذكر مسيو فاليت أن احدى الحجج التى يستند إليها الاتهام ، تتلخص فى أن روبير جرسلو قد افسدته مطالعاته . وكانت الجهود منصبة على حمل مسيو سكست على تحديد ماهية المبادىء التى كان الشاب متشبعا بها .

فاجاب الحكيم : « سل ياسيدى »

فقال القاضى : « أتريد ان نبدأ بالبداية ؟ فى أية ظروف، وفى أى تاريخ تعرفت بروبير جرسلو ؟ »

قال الفيلسوف : « كان ذلك منذ عامين ، ولمناسبة بحث مجرد ، عن الشخصية الانسانية جاء ليقدمه بنفسه الى »

— « وهل رأيته مراراً ؟ »

— « رأيته مرتين لاغير »

— « وما الأثر الذى تركه فى نفسك ؟ »

— « هو أنه شاب لديه استعداد بديع للمباحث الفلسفية ... » كذلك اجاب الفيلسوف وهو يزن كل كلمة من كلماته . فاستشف القاضى من ثنايا هذه اللهجة البريئة المخلصة ، ضمير رجل يود أن يواجه الحقيقة ويفضى بها كاملة . ثم اتبع ذلك بقوله : (نعم ، لقد كان استعداد الفتى للفلسفة بديعاً الى حد أنى جزعت لهذا النضوج المبكر »

— « ألم يحدثك عن حياته الخاصة ؟ »

— « حدثنى عنها قليلا جدا . وجملة ما افضى به الى هو أنه كان يعيش مع والدته ، وانه ازمع أن يكون أستاذاً ، فى الوقت الذى يتوفر فيه على وضع بعض المؤلفات »

— فقال القاضى : « حقاً لقد كان ذلك بعض برنامج حياة المتهم الذى وجده المحققون بين بقايا أوراقه التى عمد إلى اتلافها فيما بين سؤاله الأول

والقبض عليه ، لجاء عمله دليلا على اتهامه . فهل لك أن تلق شيئا من الضوء ، على عبارة وردت فى ذلك البرنامج ، تعتبر غامضة فى نظر أولئك الذين لا يؤمنون بالفلسفة الحديثة ، فلم يدركوا كنهها ، ولم يقفوا على حقيقة مراميها ؟ وتلك هى . . . » ثم يتناول ورقة من بين الأوراق ويتلوها : «مضاعفة التجارب النفسية قدر المستطاع . . . » فما ذا تظن فى قصد روبير جرسلو بتلك العبارة ؟ »

فقال مسيو سكست بعد صمت : «انى لفى أشد الحيرة مما اجيبك به ياسيدى» فاقتنع القاضى بان من العبث أن يمكر برجل ساذج كهذا ما حبسه عن المبادرة بالجواب إلا رغبته فى التنقيب عن عبارة يجلو بها فكرته . ثم قال الفيلسوف : « انى أعلم المعنى الذى ينطوى تحت تلك العبارة ، وأكبر ظنى أن هذا الشاب يذهب مذهبى فى التفكير ، لأنه كان على المام تام بالمباحث النفسية . فمن الواضح ، أن البرهان العكسى لقانون من قوانين العلوم القائمة على التجربة ، المؤسسة على المشاهدة ، كالكيمياء والطبيعة ، يتطلب التطبيق العملى ، لذلك البرهان . فاذا كان من الممكن تحليل الماء إلى عنصريه ، فمن الواجب تَكوُّن الماء لدى وجود هذين العنصرين . وتلك هى الطريقة التجريبية فى العلوم الحديثة . فيتاح ايجاد ظاهرة من الظواهر عند توافر شروطها . . . فهل يمكن تطبيق هذه الطريقة على الظواهر الخلقية ؟ أما من جهتى فأنا اعتقد أن ذلك ممكن ، وأن ما يسمونه التربية ليس إلا تجربة نفسية منظمة إلى حد ما اذ هى تتلخص فيما يلى : إذا أعطيت ظاهرة تدعى تارة ، الفضيلة ، وطوراً الصبر ، ومرة التبصر ، وأخرى الاخلاص . أو كفاية عقلية ، أو لغة ميتة

أو حية ، أو الخط أو الحساب — فيتعين عليك ايجاد الشروط التى تنتج فيها تلك الظاهرة بسهولة . . على أن هذا الميدان محدود ، لأنى إذا شئت ، مع افتراض أن الشروط الواجب توافرها لتوليد عاطفة قد عرفت ، أن أجد تلك العاطفة فى شخص بالذات ، فانى أصطدم بصعوبات لا يمكن التغلب عليها بحال ، سواء أكانت تلك الصعوبات مصدرها القانون ، أم كان مبعثها الأخلاق . وقد يحين الوقت الذى تصبح فيه تلك التجارب ممكنة مستطاعة . والرأى عندى ، أن نقنع الآن ، نحن جماعة علماء النفس ، بالتجارب التى تجريها الطبيعة ، أوالتى تأتى بمحض الصدفة . فالمذكرات ، والمباحث الأدبية والفنية ، والاحصاءات ، وملفات القضايا الجنائية ، وملاحظات الطب الشرعى ، كلها تمدنا بوقائع نتم على ضوئها بحوثنا النفسية . ولقد بحث معى روبير جرسلو عن تلك الضالة التى ينشدها علم النفس . وانى لأذكر ، أنه كان يأسف ، أن المحكوم عليهم بالأعدام ، لا يحاطون بشروط خاصة تسمح باجراء تجارب نفسية فيهم . على أن ذلك الرأى كان قائما على الافتراض المحض ، وصادرا عن عقل غض ، لايستطيع بعد ، أن يقدر أنه لا بد من وقت طويل لامكان دراسة حالة نفسية . وعندى أن الأطفال هم الذين يصلحون لاجراء التجارب . ولكن كيف السبيل إلى افهام الناس ، أنه قد يكون من مصلحة العلم ، أن نغرس فيهم باطراد ، بعض النقائص ، أو نبث فيهم بعض الرذائل ؟ »

فصاح القاضى صيحة الدهش والذهول حين ملأ الفيلسوف فمه بتلك الكلمة الكبيرة ، وألقاها فى دم بارد ، وضمير جامد : « بعض الرذائل ؟ »

فأجاب الفيلسوف وقد ابتسم لدهشة القاضي : « إنى أتكلم كعالم من علماء النفس . وأرى أن هذا هو الباعث على وقوف علمنا فى تقدمه عند حد محدود . ولقد أعطانى عجبك ، برهانا ، ان صح أن الأمر بحاجة إلى برهان . فلا يستطيع المجتمع الانسانى أن يتجاوز عن نظرية الخير والشر ، تلك النظرية التى لا تعدو أن تكون فى نظرنا نحن علماء النفس ، طائفة من الاصطلاحات التى تواضع الناس عليها ، فتارة تكون صالحة ، وطورا تكون صبيانية »

فقال مسيو فاليت : « على أنك تسلم بأن هناك أفعالا طيبة وأخرى سيئة » ثم أراد القاضي ان ينتزع من ذلك الجدل العام ، دليلا يضيفه إلى محضر تحقيقه فقال : « أنت تعتبر تسميم الآنسة شارلوت جريمة ... »

فاجاب مسيو سكست : « لا ريب فى ذلك من وجهة النظر الاجتماعية . ولكن ، بالنسبة للفيلسوف ، ليس هناك جريمة أو فضيلة وما أعمالنا إلا وقائع من نظام خاص ، خاضعة لقوانين بالذات » وهنا تجلى كبرياء الفيلسوف فقال : « على أنك يا سيدى تجد ايضاحا ، أجرأ على الاعتقاد بأنه واف ، لتلك النظريات فى كتابى « تشريح الارادة »

فسأل القاضي : « هل خضت فى تلك المسائل مع روبير جرسلو ؟ وهل تعتقد أنه كان يشاطرك آراءك ؟ »

فاجاب الفيلسوف : « فى الغالب »

فقال القاضي وقد ازاح الستار عن أدوات هجومه : « أفلا تعلم ياسيدى أنك تبرر زعم المركيز دى جوسات : ان المذاهب المادية الحديثة هى التى

طاحت بالشعور الخلق فى نفس ذلك الشاب ، وجعلته خليقا بارتكاب جريمة القتل ؟ »

فاجاب مسيو سكست : أنا لاأدرى ماهى المادة ، ولهذا فلست ماديا . فاما القاء التبعة على مذهب من المذاهب لأن ذهنا غير متزن يفسره تفسيرا خاطئاً فذلك كتحميل مكتشف مادة الديناميت وزر الجرائم التى تستخدم فى ارتكابها »

وسأل الفيلسوف القاضى : « اتعتقد انى سأضطر الى الذهاب الى « ريوم » لأداء الشهادة ؟ »

فقال القاضى : « لا أظن هذا ياسيدى ، فقد أرى أن علاقاتك بالمتهم كانت سطحية أكثر مما اعتقدت أمه ان كان حقا أنها لم تزد عن هاتين الزيارتين ، والرسائل الفلسفية البحتة التى تبادلتماها . على أنى أعود فاسألك : أكاشفك بشىء عن حياته لدى أسرة جوسات ؟ »

— « لم يكاشفنى بشىء اطلاقا . وفوق ذلك فقد كف عن مراسلتى منذ التحاقه بتلك العائلة »

— « أو لم تلحظ فى رسائله الأخيرة ، بوادر طموح جديد ، أو آثار قلق ، أو مظاهر فضول لا تدرك ما هيته »

— فاجاب الفيلسوف « لم الحظ شيئاً شبيها بذلك »

فصمت القاضى برهة ثم قال وهو يمعن النظر إلى ذاك الشاهد الغريب :

« لاأود ان أحتجزك أكثر مما احتجزتك . فوقتك ثمين ، وأرجو أن تسمح لى بأن ألخص لكاتب التحقيق الأجوبة التى أدليت بها الى . إذ هو لم يألف التحقيقات الخاصة بمثل تلك الآراء الدقيقة ... ثم توقع أنت بامضائك ... »

وبينا كان القاضى يملى على كاتب التحقيق من أقوال الشاهد ما قد ينير السبيل امام العدالة ، كان ذلك الذى صعقته اماطة اللثام عن جريمة روبير جرسلو ، وضاعف من اضطرابه حديثه مع قاضى التحقيق ، لا يبدى ملاحظة أو يثير اعتراضا ، بل ما كان يدرك شيئا لأن الظروف المروعة التى أحاطت به قد قضت على ملكة تفكيره فوقع بامضائه دون أن ينظر بعد أن تلا عليه مسيو فاليت شهادته . وقبل أن يبرح غرفة التحقيق قال : « وإذن فيمكن أن أكون على يقين بأنى لن أكره على الذهاب إلى هناك ؟ »

فقال القاضى وهو يشيعه إلى الباب : « أرجو ألا تضطر للذهاب . وفى كل حال فلن يستغرق ذلك إلا يوما أو يومين » وما لبث مسيو سكست أن غادر غرفة التحقيق حتى التفت القاضى إلى الكاتب فقال : « ذلك مجنون أولى له أن يعتقل فى إحدى المصحات العقلية . فبمثل تلك الآراء التى يفيض بها هذا الفوضوى العقلى ، تضل عقول النشء . . . ويا عجبا له كيف يتبدى فى مظاهر حسن النية . أو تدرى أنه قد يطوح برأس تلميذه بأفكاره الغريبة الشاذة . . . ؟ وما عليه فى هذا وكل ما يعنيه هو أن يعلم أيذهب إلى « ريوم » أم لا يذهب . ياله من مجنون ! » ثم ضحك القاضى والكاتب وقال أولهما فى نفسه : « ما كنت أحسب أدريان سكست ، الذى ملأ ذكره الأفواه والأسماع ، على تلك الصورة »

بعض الألم

وما لبث مسيو سكست ان غادر غرفة التحقيق حتى تبين الوقت ثم قال في نفسه : « لقد وافت الساعة الثانية والربع . ولن أبلغ البيت حتى تكون الثالثة . وستحضر مدام جرسلو لدى الرابعة . فلا سبيل إلى العمل . فما أشد ذلك غضاضة على نفسي ، وما أعظمه مضاضة لقلبي ! » فآثر اختيار تلك الساعة فترة لرياضته

وظل وهو يتريض يناجي نفسه : «لعمري ماذا صنعت حتى يقحم اسمي في تلك الجناية ، ويزج بي في مثارها ؟ وما عسى أن تكون جدوى شهادتي في التحقيق ؟ وما كان يداخل الرجل شك في أن نظرياته عن الجريمة ، وعن المسئولية الجنائية ، قد تصبح بين يدي المحامي البارع ، وفي فم المدافع المدره ، سلاحا ماضيا ضد جرسلو . ثم استرسل في تلك المناجاة : « أفمن أجل تلك الأسئلة الغثة التافهة التي أمطرني قاضي التحقيق بوابل منها ، يزعجون خلوتي ، ويقطعون على سبيل العمل ؟ ! حقا انهم لقوم لايحيطون بشيء من حياة الرجل العامل . وكلي رجاء الا اكره على الذهاب إلى «ريوم» لينهال على رأسي سيل من تلكم الأسئلة التي أراني قاضي التحقيق بعض ألوانها ، وتمثل لناظره شبح الرحيل إلى مدينة ريوم ، والاختلاف إلى محكمة الجنايات ، وشهود المحاكمة الجنائية ، ففاضت نفسه بالألم . فقد عرفته رجلا يسكن إلى الوحدة يؤثرها على ضجيج العالم وعجيجه ، ويلقى

بنفسه فى أحضان العزلة فلا يقطع عليه سبيل التفكير ، صخب الحياة وجلبتها . فهو رجل فكر لا رجل عمل . لا يحب أن يزعج خلوته شىء فى الوجود . لذلك هاله أن يتمثل حقيبته قد فتحت ، فألقيت فيها ثيابه ، وإلى جانبها الأوراق الضرورية لبحوثه ، وركوبه العربة ، وبلوغه المحطة المملوءة ضجة ، وجيرانه الذين يضيقون أنفاسه طوال السفر ، وطلوعه على بلد لم يره من قبل ، واشرافه على وجوه لم يتصفحها فلم يألفها ، وتبرمه بحجرة المنزل وهى خلو من عناية الآنسة « تربينار » ورعايتها ، تلك التى أصبحت منه بمنزلة الوحيد من أمه . فياعجبا لمفكر مستقل طليق ، يستقبل الموت غير وجل ولا هياب فى سبيل عقيدته التى يدين بها ، كيف يرتاع ويفزع خشية الشخوص الى « ريوم ! » وما راعه إلا أن يتمثل نفسه فى قاعة الجنايات أمام رئيس ينهال عليه بالأسئلة فيضطر للاجابة عليها ، بمرأى ومسمع من النظارة الذين أرهفوا للسمع آذانهم ، وهو الحيي الخجول . وما إن ثارت فى نفسه تلك الخواطر حتى أهاب بنفسه : « لن أستقبل بعد اليوم شابا . أجل ، سأوصد بابى فى وجوههم جميعا ... لكن لا أستبق الحوادث ، فلربما أعفونى من تلك السخرة ، وكفونى شر ذاك العناء ... »

ومضى الفيلسوف يناجى نفسه : « وكيف السبيل إلى الخلاص ، وفى الأمر مساس بمؤلفاتى وآرائى ... ؟ ما أعظم الحقد الذى تنطوى عليه صدور الجهلاء لكافة المناهج التى لا يستطيعون فهمها ... ! حقا ان الانسان عدو طبيعى لكل ما جهل ... ! هذا شاب تتأجج نيران الغيرة فى صدره ، فيجهز على الفتاة التى شغفته حبا ليحول بينها وبين الزواج بآخر .

وكان هذا الشاب يراسل الفيلسوف الذى توفر على دراسة كتبه . فالفيلسوف هو المجرم . وهو الذى يتحمل تبعة الجريمة . ومن عجب أن أصبح ماديا وأنا الذى دللت على عدم وجود المادة ! . . . ثم تراءت له صورة «مريوس ديمولان » الأستاذ الشاب فى « كوليج دى فرانس» الذى يمقته أشد المقت فوردت امام خاطر الفيلسوف بعض العبارات المحببة إلى قلب ذلك الأستاذ الملتهب حرارة فى الدفاع عن المذهب الروحى ، المتاجج نارا فى الحملة على خصومه كقوله : « المذاهب الضارة ... السم العقلى الزعاف الذى يقطر من أقلام ، أكبر الظن أنها لا تعى . . . العرض الشائن لعلم النفس عرضا لا يراد به إلا الطنطنة والاعلان عن النفس ، ولا يقصد منه إلا إلى الافساد . . . » فقال ادريان سكست فى ألم ، وهو يناجى نفسه : « نعم ، إذا لم يكشف مريوس ديمولان عن محض الصدفة التى جعلت من أحد تلاميذى قاتلا ، فيكون قد تبدل خلقا آخر . . ان علم النفس هو الذى يحتمل مسئولية تلك الجناية . . ! » وغلت مراجل الغيظ فى صدر الفيلسوف حين ذكر ان ذلك الأستاذ الشاب قد أثار حملة شعواء على كتابه « تشريح الارادة » من اجل هفوة تعتبر من الهنات الهينات ولا تهدم بحال النظرية التى أخذ نفسه بالتدليل على صحتها . وكانت آراؤه تشوبها شائبة التسامى إلى بعض الألقاب العلمية ، والطموح إلى مراكز السلطان . فقال الفيلسوف فى نفسه : « إنى لأبيحه كتبى يصنع فيها ما شاء وشاء له الهوى ، فأما علم النفس؟ علم النفس . . . الذى يرتبط به مصير هذه الأمة . . . » وإذ كان الفيلسوف يرقب مهاجمة الأستاذ له فقد صحت عزيمته على الرد عليه

ولبث الفيلسوف يمشي وهو يسائل نفسه: « أصحيح أن روبير جرسلو قتل الآنسة شارلوت ؟ ان الشاب الذى تحمله الغيرة على القتل ليؤيد نظريتى التى ذهبت فيها إلى أن غريزتى الهدم والحب تتحركان معا فى نفس الرجل وفى وقت واحد . »

وأقبل الفيلسوف على البيت فجاءته مدام جرسلو تسعى قائلة « أنا التى كتبت إليك بالأمس ياسيدى »

فأجابها الفيلسوف : « لى عظيم الشرف يا سيدتى . وانى ليؤسفنى ان تأخرت فى الحضور ولكن كتابك ذكر الساعة الرابعة على انه لم يمض طويل وقت على مبارحتى غرفة التحقيق حيث استدعيت للادلاء بشهادتى فى شأن ذلك الابن التعس . . » وكانت أنفاس الأم الضعيفة الخافتة تنم على ضعفها واعيائها . فاخذته بها شفقة ورحمة وهو هو الفيلسوف الذى لا تجد احداث العالم سبيلا إلى قلبه . وفى ضوء المصباح الذى أوقدته الخادم ، والنار التى أشعلتها ، رأى الأم المسكينة وجها لوجه . فما راعه إلا أن يشهد الغضون المرتسمة فى زوايا فمها ، وعلى جانبي أنفها ، والشفتين الجافتين من حرارة الحمى ، والحاجبين المنقبضين ، والجفون المتقرحة ، واليدين المرتعشتين المجللتين بالسواد ، تحملان أوراقا ظن الفيلسوف أنها خاصة بموقف المتهم . ثم هوت الأم على الكرسى وقالت بصوت متضعضع : « يا الهى ! يا الهى : لقد أقبلت اذن متخلفة . . . لقد كنت أحب أن أتحدث اليك ياسيدى قبل حديثك مع القاضى . . على انى لا أشك فى أنك قد توليت الدفاع عنه . فقلت إنه

ذلك لا يسيغه عقل ، وانه لم يرتكب الجريمة التى يتهمونه بها .. انك لا تعتقد إجرامه يا سيدى أنت الذى كان يدعوك أستاذه ، ويحبك من كل قلبه . . »

فقال الفيلسوف : « ما كان لى أن أدافع عنه يا سيدتى . فلقد سألونى ماذا كانت علاقاته بى ، وبما انى لم أره إلا مرتين ، وبما أنه لم يحدثنى إلا عن دراساته . . »

فقاطعته الأم ، وقد طارت نفسها شعاعا : « آه : لقد قدمت متأخرة . على أنك يا سيدى ستدلى بشهادتك أمام محكمة الجنايات ، فتنادى بانه ليس بمجرم ، ولا يمكن أن يكون مجرما . فليس يصح فى الاذهان أن يصبح الانسان مجرما بين عشية وضحاها . ونزعة الاجرام تتجلى فى نفس المجرم ، طوال فترة الشباب . وأولئك قوم يجنحون إلى الشر ، وينزعون إلى التبطل ، وينهمكون فى الميسر ، ويتسكعون فى الطرقات ، ويقتلون الوقت قعودا فى مشارب القهوات . . فاما هو ، فمنذ نعومة أظفاره ، كان مع أبيه المسكين ، مكبا على الكتب فى كل حين . . وكنت أنا التى أقول له : « هيا يا روبير اخرج ، ينبغى لك أن تخرج لتبديل الهواء ، والترويح عن نفسك . » أواه لو تمثلت الحياة الهادئة الناعمة التى كنا نحياها معا ، هو وأنا ، قبل أن يغشى تلك الاسرة اللعينة ؟ وما التحق بها إلا ليخفف العبء عن كاهلى ، ويستطيع اتمام دراسته . . فقد كان يقدر لنفسه الحصول على اجازة الاستاذية خلال ثلاث سنوات أو أربع ، ثم يتخذ له مكانا للتدريس فى إحدى الجامعات ، كجامعة « كليرمونت » مثلا . . . وكنت ابتغى له زوجة صالحة ، وأكبر

همى أن أرعى ابناءه . فقل لى بربك ايجوز فى عقل عاقل ، أن ولدا نبت فى مثل تلك البيئة ، ونما وترعرع وسط تلك الافكار والآراء ، يقدم على ما يسندونه اليه ؟ لعمر الحق ان هذا لعار »

فما زاد أدريان سكست على أن قال لها : « هدئى روعك ياسيدتى هدئى روعك ! » وكانت هذه هى العبارة الوحيدة التى عرف أن يجيب بها أما وقفت حياله ، ونفسها تكاد تذهب حسرات ، فتولول بعبارات تمزق نياط القلوب ، حين تشهد أعز آمال قلبها تتقوض ، وأغلى أمانى نفسها تنهار ، ومن ناحية أخرى ، فقد كان لا يزال تحت سلطان التأثر الذى تركه القاضى فى نفسه ، فتراءت له وقد ضلت ضلالا بعيدا ، وأصبحت فريسة للأوهام العمياء ، فلبث مشدوها ، يزيده حيرة واضطرابا ، تمثل شبح « ريوم » أمام ناظريه ، فقد كان يفزعه كما أفزعه هذا الألم الانسانى . فقر فى ذهن الأم أن الفيلسوف لا يؤمن ببراءة ابنها ، فاشارت اشارة اليأس ، وانثنت عنه مرتاعة فزعة وصاحت فى حزن وألم : « كيف ، وانت أيضا ، ياسيدى أتنحاز إلى جانب خصومه ؟ وتتشيع لمتهميه ؟ انت ؟ انت ؟ »

فاجاب ادريان سكست فى هوادة ورفق : « كلا ، لست خصما ياسيدتى وليس أحب إلى من أن أعتقد ما تعتقدين . لكن أتأذنين لى فى أن أكون معك صريحا غاية الصراحة ؟ . . الوقائع هى الوقائع ، وان وطأتها لشديدة على ابنك البائس . . فابتياع السم خفية ، والقاء الزجاجة من النافذة ، ووجود الزجاجة الثانية وقد افرغ نصفها واستعيض عن هذا النصف بماء ، والخروج

من غرفة الفتاة ، ليلة الوفاة ، والبرقية الزائفة ، والرحيل المباغت ، هذا كله الى الخطابات التى القيت طعمة للنيران ، متوجا كل أولئك بالتحصن خلف الانكار . . »

فقاطعته الأم قائلة : « ليس فى ذلك كله أى دليل ياسيدى . . فاما عن سفره المفاجىء ، فتعليله أنه كان يزمع ترك مركزه منذ شهر أو يزيد . وتحت يدى رسائله التى تنبىء عن ذلك العزم ، وفوق هذا فقد آذنت مهمته بالانتهاء ، ولقد خيل إليه أنهم يودون الاحتفاظ به ، على رغم أنه عاف حياة التدريس وود الخلاص منها ، فلفرط حيائه وخجله انتحل ذلك العذر ، واصطنع تلك البرقية المشئومة ، وهذا كل مافى الأمر . . فأما عن السم فانه ما ابتاعه خفية فلقد مضت سنون ، وكرت أعوام ، وهو يشكوا آلام المعدة . ولشد ماكان يقبل على الدرس فى أعقاب وجبات الطعام . . فأما عن مغادرته غرفتها ليلا ، فمن الذى شاهده ؟ اشاهده خادم ؟ واذا كان قد ابتاع ضميره القاتل الحقيق ، ليتهم ابنى ويدرأ عن نفسه عبء الاتهام ؟ . . وهل أنا أعلم بدخائل تلك الفتاة ، وبمن عسى أن يكون له صالح فى قتلها ؟ . . فاما عن الزجاجة الملقاة ، والأخرى المملوءة إلى نصفها ، والخطابات المحترقة ، فماهى الا ذيول خطة مدبرة ، وحلقات من سلسلة مصوغة ، أريد بها ألقاء الشبهات عليه . فاما كيف ولماذا ؟ فالايام كفيلة بتمزيق القناع عن وجه الحقيقة . . فاما ما أعلمه حقيقة فبراءة ولدى من الجريمة . وأقسم غير حانثة بذكرى والده الراحل أنه برىء . أو تعتقد انى كنت ادرأ عنه الشبهات بمثل تلك

الحرارة لو شعرت بانه مجرم ؟ أما والله لو اعتقدت اجرامه لكان قصاراى التوسل والاسترحام لا أن أرسل الصيحة داوية : العدل ! العدل ! لا لا ، لم يكن من حق هؤلاء القوم أن يتهموه ، وأن يلقوا به فى غيابة السجن ، وأن يلوثوا سمعتنا . فلقد أوضحت لك ياسيدى أن القضية خلو من كل دليل . »

فقال الفيلسوف وهو يحسب بينه وبين نفسه أن المرأة المسكينة لم توضح له شيئا اللهم الا ثورتها الصاخبة فى وجه البديهيات : « اذا كان بريئا ، ففيم الاصرار على التزام الصمت ؟ »

فصاحت مدام جرسلو : « لو صح أنه مجرم لتكلم وأطال الكلام ، ودافع وأسهب فى الدفاع ، وعمد إلى الاكاذيب يسرف فيها ولا يقتصد ، بل لأغرق المحققين فى طوفان من المفتريات . فلا بد اذن أن يكون فى الأمر سر ، وانى لعلى ثقة أنه يعلم شيئا لا يود أن يبوح به . ولديه ما يبرر صمته ، وأكبر الظن أنه يحجم عن تلويث سمعة تلك الفتاة التى يزعمون أنه كان يتعشقها . فاذا كنت ياسيدى قد وددت أن أراك بأى ثمن ، واذا كنت قد هجرت مدينة « ريوم » يومين كاملين ، فانما ساقتنى الرغبة إلى التماس العون منك . فلن يستطيع سواك ان يحل عقدة لسانه ، ويحمله على الدفاع عن نفسه ، وتبرير موقفه ، والافضاء بالحقيقة كاملة . وأرجو أن تعدنى بأنك ستكتب إليه ، وستذهب إلى هناك . فذلك دين لى فى عنقك . فلشد ما كنت باعث آلامى . وأحزانى »

فسأل الفيلسوف : « أنا ؟ »

فاجابت فى لهجة تمازجها الحرارة ، وبعبارة تشف عن الحنق ، ووجهها يفيض حقداً ، ويبض غيظاً : « إذا كان قد فقد عقيدته ، فمن ذا يحمل التبعة ؟ التبعة منصبة على رأسك ياسـيدى ، وعلى مؤلفاتك . . . ياالهى ! لشد ما فاضت نفسى حنقا عليك فى ذلك الحين ! . . . انى لا تمثله اليوم ، يتراءى لى وجهه ، وهو يقول لى : انه لن يقدم القربان فى يوم الموتى لأن الشكوك تساوره . فقلت له : « وابوك ؟ وفى يوم الموتى ! . . . » فما أنسى اجابته لى « دعينى ، فما عدت اعتقد ، قضى الأمر » ولقد كان جالسا إلى مكتبه وأمامه مجلد طواه وهو يتحدث الى . وانى لاذكر . فلقدقرأت اسم المؤلف بطريقة آلية . فكان اسمك أنت ياسيدى فلم أجادله فى ذلك اليوم . فقد كان رغم حداثة سنه من كبار العلماء ، وما كنت الا جاهلة . . فلما كان الغد ، وكان لا يزال فى الجامعة ، استدعيت القس « مارتيل» لاطلعه على المكتبة . فلقد اعتقدت ان تلك المطالعات هى التى أضلت رشاده وذهبت بهداه ، وكان كتابك ياسيدى لا يزال على المكتب . فتناوله القس « مارتيل » وقال لى : « ذلك شرها جميعاً . . » . فعفوا ياسيدى ثم عفواً إذا كنت أقسو عليك وأولمك ، فلو بقى لولدى دينه كما كان ، لتوسلت إلى القسيس أن يحمله على الكلام . لقد استلت من قلبه عقيدته ياسيدى . فلن ألومك بعد اليوم ، ولن أحمل لك حفيظة فى نفسى ، ولكن ما كنت سأطلبه من القس سأطلبه منك أنت . . . آه لو انك سمعته يوم قفل من باريس ؛ لقد كان يقول

لى : « إنك لا تعرفينه ياأمى ، ولو أتيحت لك معرفته لأكبرت قدره أيما إكبار ، انه لقديس . فعدنى أن تحل عقدة لسانه ليتكلم ، ليتكلم من أجلى ، ومن أجل أبيه ، ومن أجل أولئك الذين يحبونه ، بل من أجلك ياسيدى أيضا . فليس يصح فى الأذهان أن يكون أحد تلاميذك قاتلا . فما من شك فى أنه تلميذك وانك استاذه . فهو مدين لك بالدفاع عن نفسه كما هو مدين لى أنا أمه . . . »

فقال العالم بلهجة تشف عن الخطورة والجد : « انى أعدك ياسيدتى أن أصنع كل مافى وسعى ان أصنعه» . فتراءت له فى المرة الثانية فى ذات اليوم مسئولية الأستاذ حيال تلميذه . نعم ، لقد لمح تلك المسئولية بارزة خلال أقوال قاضى التحقيق ، ثم لمسها بيده فى عبارة مدام جرسلو

ثم قالت وهى تكفكف عبراتها : « لقد قال لى : انك طيب القلب ولقد جئتك لأؤدى رسالة عهد بها إلى ذلك الولد التعس . فعسى أن تجد بين ثناياها دليلا جديداً على براءته . فلقد لبث فى السجن شهرين وضع خلالها بحثاً مستفيضاً فى الفلسفة . وقد كلفنى بتقديمه اليك » . ثم قدمت للفيلسوف الأوراق التى معها وقالت له : « ما زالت الأوراق على الحالة التى أعطانى إياها . وهم يدعونه يكتب كيف يشاء ، لأنهم جميعاً يحبونه ولقد سمحوا لى بمخاطبته بغير وجود الحارس . فاراه الآن فى غرفة المحامين . . ومن ذا الذى يعرفه ثم لا يحبه ؟ لقد كان يصدقنى القول دوماً . وإذا كان قد اختار أن يخصك بالكتابة فما ذاك الا لأنه يريد أن يفضى بالحقيقة إليك وحدك »

فقال ادريان سكست وهو يفض غلاف الأوراق « سأرى ذلك فى الحال » ثم ألقى نظرة على الصفحة الأولى من الكراسة ، فاستطاع ان يقرأ فيها الكلمات التالية : « علم النفس الحديث » وقرأ فى الورقة الثانية عنوانا آخر : « مذكرة عن نفسى » وتحت هذا العنوان السطور التالية : « أرجو استاذى العزيز ، المسيو ادريان سكست ان يتعهد بشرفه أن يحتفظ لنفسه بالصفحات الآتية . فاذا لم يرق له ان يأخذ على نفسه هذا العهد حيال تلميذه التعس ، فانى أطلب إليه أن يتلف هذه الكراسة ، وانى لعلى ثقةأنه لايسلم تلك المذكرة لكائن من كان ، ولو كان تسليمها فى سبيل انقاذ رأسى » وقد وقع الشاب الرسالة بأحرف اسمه الأولى

وبينما يتصفح الفيلسوف أوراق الكراسة وهو فى أقسى حالات الاضطراب والقلق سألته : « ماذا رأيت ؟ . »

فأجابها وقد طوى الكراسة وبسط أمام عينها الصفحة الأولى : « ليس هذا الا بحث فلسفى محض كما أخبرك . فانظرى . . »

وبينا كانت الأم تجيل نظرها خلال الصيغ الفنية التى يقصر ادراكها عن تفهم مراميها ، طاف بفمها سؤال حائر ، وانطبعت على عينها مظاهر عدم الثقة والتصديق ، إذ شهدت ادريان سكست حيران مترددا ، على أنها لم تجترىء على السؤال فنهضت وهى تقول : « معذرة ياسيدى إذا كنت قد أطلت المكث لديك . فلقد وضعت فيك آمالى ، وماأنت ممن يخدع قلب أم ، وانى لاسجل عليك وعدك »

فاجابها بلهجة تشف عن الخطورة والجد : « سأفعل ياسيدتى كل مافى طوقى حتى تنجلى الحقيقة . وانى لاعدك كرة أخرى »

فلما شيعها إلى الباب ، والفى نفسه فى المكتب وحيدا ، غرق فى بحار التأملات . ثم تناول النسخة الخطية التى القت بها اليه مدام جرسلو ، فقرأ العبارة التى خطها الشاب بيـــده ، ثم قرأها ، وكلما نازعته نفسه الى مطالعة الكراسة ، دفعها بيده ، وأخذ يذرع غرفة المكتب جيئة وذهوبا . ولقـد أمسك بالأوراق مرتين ، ودنا من النار ، وهم بالقائها فيها ، على انه كان فى كل مرة يحجم عن أن يجعلها طعاما للهب . وكانت رأسه مثارا لمعركة مشبوبة النيران ، وظلت تتنازعه عوامل متباينة ، بين ان يستسلم لتلك الرغبة الملحة فى الاطلاع على اعترافات تلميذه ، وبين ان يتفادى المخاوف التى تساوره . وفى الحق فان العهد الذى يأخذ نفسه به مضافا الى ما يمكن أن يتبينه من ثنايا تلك الأوراق قد يقذف به فى مازق حرج . افيطوع له ضميره أن يكون بيده الدليل على براءة الشاب ثم لا يستطيع تقديمه ؟ وماذا يكون موقفه اذا كانت تلك الأوراق تحمل فى ثناياها الدليل على ادانته ؟ وخشى ان يجـد فيها ، إن صح أن فى الأمر جريمة ، مظهرا لتاثيره ، ومصداقا للاتهام القائل ان كتبه قد لعبت دوراً هاما فى تلك الجريمة المروعة . ورأى أنه لا يجمل به أن يتورط فى تلك المأساة . فقال فى نفسه : « كلا لن اقرأ تلك المذكرة وسأكتب إلى ذلك الفتى كما وعدت والدته . ثم ينقضى الأمر » ثم اقبلت ساعة عشائه ، فجلس إلى المائدة وحيدا على مألوف عادته . فلما فرغ من تناول

العشاء جلس على مقعد ولم يخرج ، وأمامه مذكرة روبير جرسلو . وظل حينا نهبا للتردد ، ثم تغلبت طلعة الفيلسوف على أحكام الضمير ، فاقبل على المذكرة يقرأها ، ولبث يقرأ حتى كانت الساعة الثانية صباحا ، وكان أولى بتلك القطعة التحليليـة التى أسماها روبير جرسلو : « مذكرة عن نفسى » أن تدعى :

« اعترافات شاب من شباب اليوم »

اعترافات شاب

« سجن ريوم فى يناير عام ١٨٨٧ »

« اكتب اليك ياسيدى هذه المذكرة عن نفسى ، وقد أبيتها على المحامى رغم توسلات أمى . وانى لأكتبها اليك انت الذى لا يعرف من حياتى الخاصة إلا النزر اليسير ، فى أدق المراحل وأحرجها . والذى حملنى على كتابتها هو ما جعلنى أحمل اليك باكورة مباحثى . فانى لتربطنى بك ، أنت الاستاذ الجليل ، وأنا تلميذك المتهم بجناية هى شر الجنايات وأخزاها ، رابطة يعجز الناس عن ادراكها ، بل ربما خفيت عنك ، وان كنت قد أحسها فى أعماق نفسى ، وأشعر أنها رابطة لا انفصام لها . فلقد عشت بفكرتك ولفكرتك فى الساعة الفاصلة من ساعات وجودى . والآن ، وأنا نهب آلام نفسية ممضة اتوجه اليك على أنك الواحد الفرد الذى يمكن أن التمس فى شدتى عونه . ولايحسبن ، سيدى وأستاذى ، أن مبعث ما أقاسى من فزع واضطراب ، هو ما يحيط بى من مظاهر العدالة ، فلا كنت جديرا بلقب الفيلسوف ان لم أكن قد آمنت بان فكرتى هى الحقيقة الوحيدة التى يجب اتقاء حسابها ، أما ما عداها من مظاهر العالم الخارجية فليست إلا سلسلة من المشاهد الجوفاء . وقد يقضى على بالاعدام بعد ستة أسابيع من أجل تلك الجريمة التى لم أقترفها . وستتبين بعد مطالعة هذه الصفحات لماذا أحجم عن درئها — ثم أمشى إلى الموت رابط الجأش ، ثابت الجنان ، لا تعرونى هزة اضطراب ، واستقبل الحادث الجلل غير وجل ولا هياب استقبالى قول

الطبيب لى : ان بقلبي علة توشك أن تقضى على . ولو حكم باعدامى ، لغالبت بقوة ، تلك النزعة الحيوانية التى تثيرها غريزة حب البقاء ، ثم لناهضت اليأس المستولى على نفس والدتى . ولا أخفى عن أستاذى العزيز ، أنى وإن لم أقتل الآنسة شارلوت ، فانى قد انغمست فى مأساة تسممها ، ولذا أشعر الآن بوخز الضمير ، رغم أن علمتنى المذاهب التى أدين بها ، والحقائق التى علمتها ، والعقائد التى تتالف منها عقليتى ، بان الضمير هو أغبى الأوهام الانسانية جميعاً . فأود أن أسمع منك ، وأنت الطبيب بامراض النفس البشرية ، كلمة ترد السكينة إلى قلبي ، وتقنعنى بانى لم أكن مخدوعا حين اعتنقت المذاهب العصرية ، ثم إنى بائس أريد أن أفضى ببؤسى ، لأروح عن نفسى ، وأزحزح الكابوس الجاثم على صدرى . ومن أكاشف إذا لم أكاشفك ، وأنت القادر على أن تدرك كنه نفسى ، وحقيقة عقلى . ولقد لبثت فى السجن زهاء شهرين فما عدت لصوابى بعد تلك الحوادث الفظيعة الاحين هممت بالكتابة اليك . ولقد حاولت على غير جدوى ، أن أشتغل ببعض البحوث التجريدية . ومضت أربعة أيام وأنا مكب على الكتابة اليك ، فى غفلة من أعين الرقباء ، فعاودتنى قوة تفكيرى ، والآن لا يخامرنى شك فى أن عوامل الوراثة هى منشأ الأزمة التى أعانى ، وأن مبعثها البيئة الفكرية التى عشت فيها ، والبيئة الغريبة التى انتقلت اليها ، وقوامها أسرة جوسات

الوراثة

ولدت ، أنا روبير جرسلو، بمدينة كلير مونت فى ٥ سبتمبر من عام ١٨٦٤ وكان والدى الذى فقدته وهو شاب ، من أصـــل لورينى ، يشغل وظيفة مهندس جسور وطرق . وإذا تمثلته تمثل لك ضئيلا ضعيف الصحة مهزولا ، لا ينبت فى ذقنه إلا شعر قليل، وعلى وجهه طابع وقار يشف عن الحزن العميق . وما ذكرته ، على تمادى الأعوام ، إلا أثار الشفقة والحنان فى قلبى . وانه ليتراءى لى الآن وهو فى مكتبه مكب على عمله . وكانت المحطة على كثب من بيتنا ، فكان صفير القطار يصل بدون انقطاع إلى ذلك المكتب الهادىء الساكن . وكنت ألهو فى أرض الغرفة ، على مقربة من النار ، فى هدوء وصمت ، فيحدث ذاك الصفير أثرا عميقـــا فى نفسى ، كالأثر الناشىء من الاصطدام بسر رهيب ، أو الاحساس بالاغتراب ، أو الشعور بفناء الساعات ، وتلاشى الحياة . وكان أبى يخط بالطباشير على السبورة رسوما هندسية ، أوصيغا للجبر ، لا أدرك شيئا منها . وكانت المكتبة ، وصور العلماء ، هى كل ما تزدان به الحجرة . وما ذكرت هذه مفصلا الا لتعلم إنى كنت منذ حداثتى أتوق إلى حياة التفكير والمثل الأعلى . نعم ، لقد كنت أوثر التفكير على الحركة ، حتى ان الزيارة المجردة كان يخفق لها قلبى . بل ما كنت أجسر على أن أناضل أحدا وجها لوجه فى سبيل أعز الآراء على نفسى ، وأحبها إلى قلبى . وما من شك فى أن هذا النفور من الحركة يسوق الانسان إلى الانهماك فى التفكير ، حتى يصبح بمعزل عن حقائق هذا العالم

ولقد ورثت عن أبى مرض المجموعة العصبية مرضا يجعل الارادة تندفع فى بعض الأحيان دون أن يكبح جماحها كابح . ومات أبى وهو شاب ، اذ لم يكن متين التركيب . وكان عليـــه وهو فتى ان يجوز امتحان مدرسة الهندسة ، فقضى ذلك الامتحان الدقيق على صحته بالضعف والوهن . فلم أرث عنه القوة الجثمانية التى تقاوم حساسية أعصابى المرهفة

ولقد استرعى نظرى أن أرى أمى إلى جانبى تؤدى فريضة الصلاة فى الكنيسة على حين لم أر أبى فيها أبداً . فبدا لى يوما أن أسأل والدتى : «لماذا لا يحضر أبى معنا للصلاة» . ولم يعسر على ، رغم طفولتى ، أن أدرك مبلغ الاضطراب الذى أحدثه سؤالى فى نفسها ، فقالت لى : « انه يؤدى الصلاة فى جهة أخرى . ألم أقل لك مراراً إنه لا يجمل بالأبناء أن يتساءلوا عما يصنعه الآباء » . ومن ذلك اليوم لم يبق أثر للاتصال الروحى بينى وبين أمى

ولشد ما كان أبى يحب الريف الذى نشأ فيه . وكثيرا ما اصطحبنى فى غدواته وروحاته . فاذا جاء إلى جبل عنى بدراسة تكوين الأرض . وإذا اقتطف زهرة تعرف اسمها ، ودرس طبيعتها . وإذا التقط حشرة اشتغل بدرس فصيلتها ، وتكوينها الخلق . وكان يحدثنى حديث ذلك كله . فما من عجب أن توجد فىّ الروح التحليلية . ولو ظل أبى على قيد الحياة ، لاعتنقت العلوم العملية

ولما بلغت العاشرة من عمرى ، وكنا فى نزهة معا ، هبت علينا عاصفة

هوجاء ، غمرت ثيابنا بالماء ، وكأنما كنا نسبح ولا نمشي . فرجعنا بأثوابنا مبللة ، فأصيب ببرد شديد . فما أقبل المساء حتى كان يشكو الرعدة ، ويألم من القشعريرة ، وما إن مضى يومان حتى أصيب بنزلة صدرية ، ثم ما لبث أن قضى نحبه

ولقد ذهلت لموته أكثر مما حزنت لفقده ، واليوم فقط أستطيع أن أقدر مبلغ الخسارة التى تحملتها بفقده . فلقد غرس فى نفسى حب الحياة العقلية ، وبث فى قلبى روح الايمان بالعلم . هذا من الناحية الفكرية ، فاما من الناحية الخلقية ، فلقد راضنى إلى التفكير ، وزهدنى فى الحركة إلى حد أن عافتها نفسى ، وأصبحت أعجز من أن أقاوم أهوائى الجامحة

وإن تعجب فعجب ، وقد أصبحت وأمى وحيدين فى هذا الوجود ، وهى المملوءة نشاطاً وإخلاصاً ، وأنا الشاب ، ان لم توجد بيننا رابطة قلبية حتى فى السنوات الأولى . ولقد سمعتها مرة تحدث إحدى الزائرات فتقول : « إنى لأخشى أن يكون ولدى بلا قلب ولا عاطفة . فانك لا تستطيعين أن تصورى لنفسك تحجر فؤاده يوم موت أبيه . . . وما أقبل الغد حتى نسى ذكراه . . ومنذ موته لم يذكره بكلمة واحدة . . وإذا خاطبته بشأنه فلا يكاد يجيبنى . . ويخيل للانسان أنه لم يعرف ذاك الرجل الذى كان يغمره بحبه ، ويسبغ عليه عطفه ، ويفيض حناناً عليه . . » وحق إنى لم أتكلم عن أبى ، ولكن باطل أنى نسيته فلم أذكره . فما مررت بافريز ، ولا اجتزت طريقاً ،

ولا شهدت شيئاً من أثاث بيتنا ، دون أن يوقظ ذكرى أبى فى قلبى ، إيقاظاً يشيع الآلام فى أعماق نفسى

وضاعف الانفصال الروحى بين أمى وبينى أنها رأتنى يوما أطالع بعض الكتب الأدبية التى كان يقتنيها أبى ، فانتهرتنى ، وأخذتها منى عنوة ، فأودعتها المكتبة ، ثم حرصت على مفاتيحها ، مخافة أن أعاود مطالعتها

البيئة العقلية

كنت بين الحادية عشرة ، والخامسة عشرة ، يافعاً ورعاً تقياً . وفى العهد الذى أتحدث عنه ، تولى الحزب الديمقراطى مقاليد الحكم فى فرنسا ، فطغت على باريس والريف موجة متدفقة من أمواج حرية الفكر . وأنا ابن امرأة تقية ، فحُمِلْتُ على تادية كافة الفرائض الدينية . فكنت أختلف إلى الكنيسة كل خمسة عشر يوما ، فاركع على ركبتى ، وأتمتم بصوت خافت ، وقلبى يخفق ، بكل ما يطوف بنفسى . وكانت خطاياى تتمثل لى جرائم أخجل من الاعتراف بها ، وكان القس مارتيل إذا حدثنا عن الجحيم ، أبرقت عيناه ، وسرى الفزع من نفسه إلى نفوسنا . وجئته يوماً أبكى ، واذكر له أنى رأيت اثنين من أصحابى يسخران من امرأة داخلة إلى الكنيسة ، فشاطرتهم الضحك ، بدل أن أنهاهم عن السخر من تلك المرأة

وإنما عصفت بعقيدتى روح النقد ، وهى الملكة التى تهدم الايمان ، وهى التى فرقت بينى وبين أمى . ثم إنى رأيت الرجال الذين على شاكلة أبى لا يؤدون فروض الدين . فالأساتذة الشبان الذين يقدمون علينا من باريس كانوا كلهم من المتشككة أو من الملاحدة . ومحا البقية الباقية من إيمانى ، الأدب الحديث الذى توفرت على دراسته منذ بلغت الرابعة عشرة من عمرى . وإذا كانت أمى قد حالت بينى وبين كتب أبى فقد غنيت عنها بكتب صديق لى كان مثلى شديد الشغف بالمطالعة

كذلك كانت حالتى النفسية حين بدأت دراسة الفلسفة فى الجامعة . وبينا انقب عن المؤلفات التى توضح اللبس الذى أجده فى شرح أستاذى ، وجدت كتاب « روح الله » فاغرمت بها إغراماً شديداً . فنازعتنى نفسى إلى أخويه ، « نظرية العواطف » و « تشريح الارادة » . فكان أثره الفعال فى نفسى من الوجهة العقلية ، كأثر مؤلفات « موسيه » من وجهة الحساسية الخفاقة ، والعواطف الجياشة . وبذلك سقط القناع ، وتبددت الظلمات التى كانت تكتنف العالم أمام ناظرى . واهتديت إلى الطريق ، وأصبحت تلميذك

البيئة الجديدة

أقبلت على الدراسة إقبالا شديداً ، فاصبت بمرض خطير اكرهني على الانقطاع عن التحضير لدخول « مدرسة النورمال » . فما إن أبللت من مرضي حتى ضاعفت دراستي للفلسفة ، معمتابعتي لدرس البيان . ثم تقدمت للمدرسة في الوقت الذي تشرفت باستقبالك إياي . أما الحوادث التالية فانت تعلمها ولا تجهلها . فقد اخفقت في الامتحان

وفي شهر نوفمبر من عام ١٨٨٥ قبلت ان أكون مدرسا في أسرة «جوسات راندون » . ولقد كتبت اليك إذ ذاك اني قد تنازلت عن استقلالي لعلي أخفف الاعباء المالية عن عاتق والدتي . أضف إلى هذا أني كنت اداعب الأمل بان ما اقتصـــــد من أجر التدريس ، قد يعينني ، متى نلت اجازة الليسانس في الآداب ، على أن أهيء نفسي لنيل اجازة الاستاذية في باريس . فقد حببت إليّ الاقامة في تلك المدينة آملا ان أتخذلي مسكناً على مقربة من شارع « جودولابروس » حيث تقيم . فلقد تركت زيارتي اياك في صومعتك ، أثراً عميقاً في نفسي . وشبه لي انك «سبينوزا» العصر الحاضر ، للطباق بين حياتك وكتبك ، تلك الحياة التي كرستها للعلم ، ووقفتها على التفكير . ولقد ظللت أشيد قصور السعادة وعلاليها ، لتوهمي ان سأعلم بأوقات رياضتك ، وسألقاك في حديقة النباتات ، وانك سترضى ان تسدد خطواتي ، فاذا التمست عونك ، ووثقت من معاضدتك ،استطعت أن أظفر بالمكانة في ميدان العلم . فقد كنت لي الحقيقة الحية ، والاستاذ الهادي ، بل كنت مني بمنزلة «فوست» من « فجنر » في رواية «جوته» الخالدة

وكانت الشروط التى قدمت لى عن التدريس مرضية . فقد كان على أن أصطحب غلاما فى الثانية عشرة من عمره « وهو الابن الثانى للمركيز دى جوسات » . ولقد علمت منذ ذلك الحين كيف آوت تلك الأسرة طوال فصل الشتاء ، إلى ذلك القصر القريب من ضفاف بحيرة « ايدات » ، على حين انها الفت أن تقضى فيه أشهر الخريف عادة . فلقد كان المسيو دى جوسات وزيراً مفوضاً فى عهد الأمبراطور ، فاصابته أزمة مالية ، ضاعف من آثارها ، وشدد من وطأتها ، ما خسره من المضاربات فى ، البورصة . فرهنت أملاكه ، وتضاءل ايراده ، فاضطر إلى تأجير قصره بأثاثاته فى « الشانزليزيه » بايجار . كبير ثم وصل إلى أرضه فى جوسات ، وهو يزمع أن يبرحها إلى بيته فى مدينة « كان » . فسنحت له فرصة جميلة لتأجير ذلك البيت . وأغرته بتأجيره ، الرغبة الملحة فى موازنة دخله وخرجه . هذا إلى أن مرضه العصبى قد حبب اليه أن يسكن إلى الوحدة عاما كاملا . وفى ذلك الحين ، سافر مدرس ولده «لوسيان» فجأة ، فما كان يرضى أن يقبر نفسه حياً طوال الشهور . وكذلك عجل المركيز بالشخوص إلى « كلير مونت » . ولخمس وثلاثين خلت ، كان قد درس علم الحساب على المسيو « ليماسيه » صديق والدى القديم . فبدا له أن يطلب إلى أستاذه أن يأتيه بشاب متعلم ، ذكى ، فيه الكفاية لتعليم « لوسيان » طوال هذا العام . وأبدى استعداده لأن يبذل خمسة آلاف فرنك فى هذا السبيل . فكان من الطبيعى أن يتجه فكر مسيو « ليماسيه » إلىّ ، وقبلت أنا ، للاعتبارات التى بسطتها اليك ، وارتضيت أن أمثل بين يدى المركيز باعتبارى مرشحا لذاك المركز . وفى

بهو من ابهاء المنزل المشرف على ميدان «جود» ، رأيت رجلا مديد القامة ، أصلع الرأس ، ذا عينين زرقاوين ، ووجه يضرب لونه إلى الحمرة ، ما كلف نفسه مؤونة النظر إلىّ . ثم انطلق يتكلم ، دون انقطاع ، وفى خلال حديثه يقحم الكلام عن صحته ، بين الفينة والفينة ، بينا هو يوجه النقد المر اللاذع للتربية العصرية . وفى الواقع فقد كان المريض الوهمى الذى يحسب أن قد اصطلحت عليه العلل ، وتحالفت عليه الأمراض ، على حين أنه الصحيح المعافى . ولكأنى أسمعه الآن ، يلقى القول جزافا ، ويرسل الكلام اعتباطا ، فيكشف هذا الخبط والخلط ، أو ذاك التخليط فى الكلام ، عن صورة نفسه ، وحقيقة خلقه ، وليس يسعنى إلا أن أقدم لك طرازا من هذا الخبط ، ولونا من ذاك الخلط ، لأعطيك صورة صحيحة واضحة ، عن البيئة الجديدة التى قذفت بى اليها الأقدار الساخرة . قال المركيز : « قل لى يا ليماسيه ، متى تحضر لترانا .. ؟ إن المناخ هناك طيب . وذلك ما ينبغى لى . فقد كنت فى باريس لا أكاد أتنفس . وفى الواقع فان الناس لا يتنفسون ما فيه الكفاية . » ثم يلتفت إلى ويقول : « أرجو يا سيدى أن لا تكون من أنصار الطرائق الحديثة فى التعليم . فقد ملأوا آذاننا بكلمات العلم ، ولا شىء غير العلم ! والله ، ماذا صنعتم به ، ايها السادة العلماء . . . » ثم يتوجه بالقول إلى مسيو « ليماسيه » : « إنى أستطيع أن أقول ، أن فى عصرى ، فى عصرنا ، كان لا يزال هناك شعور بفروق الطبقات ، وبوجوب توقير الصغير للكبير ، وضرورة عطف الثانى على الأول ، وبالواجب . وما كان الناس يهملون جانب التربيـة فى سبيل التعليم . اتذكر القس « هابير »

وكيف كان يتدفق بالـكلام ، ويفيض بالحـكمة ، وفصل الخطاب ؟ . . يالها من صحة ! وياله من رجل كان يمشى بخطى ثابتة ، فى كل حين ، دون وهن أو تخاذل ! . . ولـكن أنت ، يا « لياسيه » كم عمرك . . ؟ أظنك قد نيفت على السبعين ؟ . . سبعين عاما ثم لا تشكو ألما ؟ ولا ألما واحداً ؟ . . . أفلا ترى أن صحتى قد تقدمت منذ اخترت الاقامة فى الجبال ؟ . . الحق انى لست مريضا بمعنى الـكلمة ، لـكن هناك أبدا شىء بسيط . . . ولعله يثير دهشتك ، إنى أبتغى أن أكون مريضا حقا وصدقا . فنى تلك الحالة على الأقل ، يتعين علىّ أن أعالج نفسى ، وأعنى بصحتى . . »

فاذا كنت أضع تحت نظر استاذى العزيز ، هذا القول المتخاذل المفكك الأوصال ، بقدر ماوعته ذاكرتى ، فما ذاك الا لأنى أبغى ان أقدم بين يديك صورة بارزة لعقلية ذلك الرجل ، الذى اجترأ ، كما علمت من والدتى ، على ان زج باسمك الـكريم فى غمار تلك المأساة . وكذلك أقصد أن اكشف لك عن جانب من جوانب حالتى النفسية ، بعد أربعة أيام من قدومى على ذلك القصر الذى اصطدمت فيه بابشع الحادثات هولا ، وأشدها شنعة . ولقد ارتضى المركيز ، منـــذ الزورة الأولى ، ان اكون معلم ولده « لوسيان » . ثم تلطف فأبى الا ان أصحبه فى العربة . وفى أثناء رحلتنا من « كليرمونت » إلى « ايدات » أفضى إلى بقصة أسرته . فأوضح لى ان امرأته وابنته لا تقبلان على الملاهى ، وانهما قد برعتا فى ادارة شئون البيت ، حتى لتصلح كلتاهما لأن تكون ربته . وكان يمزج الكلام بثرثرته التى لابد منها ، وتتخلل حديثه الاشارة الى شخصه ، ثم يعوج إلى الكلام عن صحته .

وقال لى إن ابنه البكر ، الكونت اندريه ، سوف يقضى بين ظهرانيهم خمسة عشر يوما ، وأنه لا ينبغى لى أن أتبرم بخشونة جانبه ، وجفوة طباعه ، فان صدره ينطوى على قلب يفيض عطفاً وحنانا . وان ابنه الثانى لوسيان كان يشكو مرضا خطيراً ، وان ما يجب أن تتجه إليه العناية هو أن تضفى عليه أثواب الصحة ، وتسبغ عليه حلل العافية ضافية . فما إن فاه المركيز بكلمة الصحة ، حتى أخذ يبدىء فيها ويعيد ، ولبث ساعة كاملة يتحدث عن أوجاع رأسه ، وسوء هضمه ، والارق الذى يقض مضجعه ، وآلامه فى الماضى ، والحاضر ، والمستقبل أيضا ، ثم انهكه التعب ، فلشد ما استقبل الهواء ، وفاض فى طوفان من الكلام ، حتى أسلم عينيه للكرى فى زاوية العربة

وإنى لاذكر الخطط والأساليب التى كانت تطوف إذ ذاك برأسى ، بعد ان تزحزح الكابوس الجاثم فوق صدرى ، ونام ملء جفونه الرجل الذى ما كدت أعرفه حتى غمرته بازدرائى ، حين انطلقت بنا العربة تنهب الأرض نهباً ، بين المروج الخضراء ، والجبال الشماء ، والغابات المورقة الافنان . وأن ما رأيته من المركيز ، وما كشفته لى محاضراته عن بيته ، كان كفيلا باقناعى ، ان سأكون فى بيئتى الجديدة ، فى موقف المقضى عليه بالنفى بين قوم دعوتهم بالمتبربرين . وهو اللقب الذى أطلقته منذ سنين على أولئك الذين يظلون بعيدين عن مثار الحياة العقلية

على أنى لم أفزع من ذلك النفى ولم أجزع . فالمذهب الذى اتخذته نبراساً لحياتى ، والعقيدة التى أقمت على ضوئها تنظيم وجودى ، كانا واضحين فى ذهنى إلى أقصى حدود الوضوح . فلقد صح عزمى على ان أعيش سجيناً فى

نفسى ، أذود عن حرمها المقدس كل دخيل . فاما هذا القصر الذى اختلف إليه ، والقوم الذين تضمهم جوانحه ، فلن يكونوا فى اعتبارى الا بمثابة المادة التى أحرص على ان استغلها فى سبيل فكرتى إلى أقصى حدود الاستغلال . فقد تحدد برنامجى ، اذ قد صحت عزيمتى ، طوال الأثنى عشر أو الأربعة عشر شهراً التى سأقضيها بين ظهرانيهم ، على ان اكرس أوقات فراغى لدراسة اللغة الألمانية ، ومطالعة مجلدى بونيس فى علم وظائف الاعضاء ، ذينك المجلدين اللذين تغص بهما حقيبتى الصغيرة ، مع مؤلفات استاذى العزيز ، ومؤلفات عدة ، للمسيو ريبو ، والمسيو تين ، وهربرت سبنسر ، وبضع روايات تحليلية والكتب الضرورية للتأهب لنيل أجازة الآداب . وقد كنت أقدر ان أجوز الامتحان فى شهر يوليو . وأعددت كراسة بيضاء لاسطر فيها خواطرى عن أخلاق القوم الذين أصبحت بين ظهرانيهم . وأخذت نفسى بان أدرس نفسياتهم جملة وتفصيلا ، فابتعت قبل الرحيل كراسة كتبت على غلافها العبارة التالية المنتزعة من كتاب « تشريح الارادة » : « كان سبينوزا يباهى بأنه يدرس المشاعر الانسانية ، كما يدرس الرياضى رسومه الهندسية . فاما العالم النفسى العصرى فينبغى له ان يدرسها كما يدرس المزيج الكيميائى فى آنية التقطير مع هذا الفارق الذى يدعو الى الأسف ، ويبعث الأسى ، وهو ان وعاء النفس البشرية ، ليس شفافا ، ولا قابلا للتصرف ، مثل وعاء التقطير فى معمل الكيمياء . . . » . وانى لأقص عليك ذلك العبث الفارغ ، لأدلك على أنى كنت مخلصاً وفياً ، وانى ، حين انطلقت بنا العربة فى الطريق إلى « ايدات » ، كنت قليل الشبه بذاك الشاب الطامح الفقير

الذى طالما رسمت صورته أقلام الروائيين

وتولتنى الدهشة التى تتولى كل من ينتقل من بيئة إلى بيئة أخرى . على انك اذا فتشت فى جوانب نفسى لم تجد أثراً للحقد أو الطاعية . فلقد كنت أنظر إلى المركيز حين أخذته سنة من النوم ، فى يوم من شهر نوفمبر ، وقد تدثر بالفراء التى تدفع عنه عادية البرد ، واسدل على ساقيه غطاء من الصوف يقيه غائلة الزمهرير ، ووضع يديه فى قفازين من الجلد ، وعلى رأسه قبعة تكاد تخفى عينيه . وأن تلك الصورة وحدها ، لتكشف عن البون الشاسع ، والهوة العميقة المظلمة ، بين تلك الحيـاة الناعمة المترفة التى يحياها المركيز وأسرته ، وحياة المسغبة التى أعانيها أنا وأمى . ولولا الادخار ، وان شئت التقتير ، الذى تأخذ امى نفسها به ، لقضت علينا المتربة ، بل لذهبنا ضحايا البؤس والشقاء

وابتهجت كثيراً إذ لم أشعر بشىء من الحسد أمام ذاك الثراء الطائل ، والنعمة الوارفة الظلال ، أجل ! ما أحسست بحسد أو حقد فقد كنت واثقا من نفسى ، مدرعاً بعقيدتى ، أو عقيدتك ، معتداً بتفوقى فى ميدان الفـكر ، وسموى فى عالم العقل . وانى لأتم لك تصوير نفسيتى إذا قلت إنى استبعد قد اعتزمت أن الحب من برنامج حياتى ، وأن أقف تلك الحياة على تكريم العلم ، وتقديس العلماء . بل لقد فكرت فى ان ادرس شعائر العبادة فى الاديرة لاطبقها على عبادة الفلسفة . فاطلق العنان لتأملاتى الفلسفية ، كما يصنع جماعة الرهبان ، حين يسترسلون لتأملاتهم الدينية ، وان احتفل فى كل يوم ، كما يفعل الرهبان ، بذكرى أولئك الذين أنزلهم من نفسى منازل القديسين ، بذكرى سبينوزا وهوبز ، وستندهال ، وستيوارت مل ، وأنت يا استاذى العزيز ، على ان أتمثل

صورة من أحيي ذكراه ، واستعرض مذاهبه ، وأروض نفسى على التشيع له ، والتشبع بمبادئه . ولا أكتمك ان ذلك كله لم يكن إلا فورة الشباب ، وغرارة الصبا . على انك ترى انى لم اكن ذاك الفقير الطامع الذى يحلق فى أجواء الخيال ، ويسبح فى سماء الاحلام ، ليظفر بصفقة رابحة فى الزواج كما تزعم اليوم تلك العائلة . ولئن كان خاطر إغراء الآنسة «شارلوت» ، وخداعها عن عفافها ، قد خطر ببالى ، فانما انغرس فى ذهنى اعتباطا ، وأملته علىّ الظروف ، وأوحت به إلىّ الملابسات

لست أكتب اليك لأسبغ على نفسى الثوب الروائى . ولا أخفى عنك أن من بين الظروف التى حملتنى على الاغراء ، وقد كان بعيداً عن ذهنى يوم قدمت ، الاثر الذى تركه الكونت اندريه فى نفسى . بل لا اكذبك أن ذلك الأثر كان فى طليعة الظروف التى ساقتنى إلى الاغراء سوقا . والكونت اندريه ، كما ذكرت لك ، هو شقيق تلك المسكينة التى قضت ، والتى لاتزال ذكراها عالقة بقلبى ، وكلما دنوت من غاية المأساة تضاعفت آلامى ، ولكن لنعد إلى حديث قدومى . كانت الساعة قد ناهزت الخامسة وانطلقت العربة مسرعة فى السير . واستيقظ المركيز من نومه . فاشار الى مياه بحيرة ايدات الصغيرة التى أكسبها غروب الشمس لوناً وردياً . وهناك القصر الضخم الفخم المشيد على الطراز الحديث ذو اللون الأبيض والابراج العالية . وها نحن أولاء فى الطريق المزدان بالأشجار ، المفضى إلى القصر ، ثم لا نلبث أن نكون أمام بابه ، ثم نغشى البهو ، فننفذ إلى قاعة الاستقبال . ولشد ما

كانت قاعة الاستقبال هادئة ، ترفرف عليها أجنحة السكينة ، وقد أضيئت بالمصابيح الكبيرة ، واضطرمت نيران التدفئة فى الموقد . وكانت المركيزة دى جوسات مشتغلة مع ابنتها فى إعداد الثياب للفقراء . وكان تلميذى فى المستقبل واقفاً أمام « البيان » ينظر فى كتاب مزين بالصور . وكانت مربية الآنسة شارلوت مع امرأة متدينة ، جالستين بعيداً ، ومشتغلتين بالحياكة . وكان الكونت اندريه يتصفح جريدة القاهالدى قدومنا . أجل ، لشد ماكانت قاعة الاستقبال هادئة ساكنة ، ومن الذى كان بوسعه أن ينبئنى بان مقدمى سيؤذن بوضع حد لسلام هؤلاء الناس الذين يتراءون الساعة أمام ناظرى كأنهم صور حية ناطقة ؟ وانى لأتمثل وجه المركيزة ، تلك المرأة الطويلة القامة ، المكتنزة اللحم ، ذات الملامح الجهمة ، وهى صورة تغاير تمام المغايرة ، ماارتسم فى مخيلتى عن عقيلة من كريمات العقائل . ولقد بدت لى ، كما حدثنى المركيز ، المثل الأعلى لربة البيت ، ولكنها ربة بيت ناضجة التربية ، وما لبثت ان خاطبتنى بشان اليوم البديع الذى قضينا فيه رحلتنا ، حتى هدأت روعى ، والقت السكينة فى قلبى . ولكأنى الآن أشهد محيا الآنسة « اليزا لرجكس » المربية ، وقد انطبعت على شفتيها ابتسامة تضىء جوانب سحابة الكآبة التى تظل وجهها . وإنى لأرى الأخت « انكليه » بوجهها الريفى ، وفمها الدقيق . وكانت تقيم دائماً فى القصر ، لتكون ممرضة المركيز الذى يخشى أبداً هجوم المرض . وإنى لأرى «لوسيان» الصغير بوجهه الذى ينم عن الجنوح إلى الكسل . وإنى لأتمثل تلك التى لم يبق منها إلا ذكراها . نعم ، أتمثلها غادة هيفاء ، فى ثوبها الأنيق ، وعينيها

النجلاوين اللتين تفيضان حناناً ورحمة ، وشعرها الكستنائى ، ومحياها الوضاح ، ويدها الغضة التى قدمت لأبيها ولى ، قدحا من الشاى يدفع عنا عادى البرد . ولكانى أسمع صوتها وهى تقول للمركيز :

— ارأيت يا أبتى كيف خلع الشفق على البحيرة الصغيرة ثوبا ورديا ؟ . . »

وانى لأسمع صوت المسيو دى جوسات ، وهو يجيب حين تناول الشاى

— « لقد شهدت ضباباً كثيفاً يكتنف الحقول ، وبرداً يملأ الجو »

وانى لأسمع صوت الكونت اندريه يشترك فى الحديث :

— « نعم ، ولكن ما أجمل الصيد غداً . . ! » — ثم يلتفت إلى ويقول : « أتصطاد يامسيو جرسلو ؟ »

فأجبته : « كلا ، ياسيدى »

فسألنى ثانية : « أتركب الخيل ؟ »

— « ولا هذا »

فتضاحك ثم قال : « انى لأرثى لحالك . فالصيد والخيل ، هما ، بعد الحرب ، السلوتان اللتان اتعشقهما من كل قلبى »

ولا يدل هذا الحوار على شىء . بل لا يكشف لك عن الباعث الذى بعثنى على أن أعد اندريه دى جوسات مخلوقا على غير شاكلة الذين عرفتهم جميعاً . وما لبثت أن صعدت إلى غرفتى ، حيث اشتغل أحد الخدم بفتح

حقيبتى ، حتى اتجه فكرى اليه أكثر مما اتجه إلى أخته الرائعة . ولما جلسنا إلى المائدة لتناول العشاء ، وفى قضاء وقت السهر ، لم تكن مشاهداتى تنصب إلا عليه . على أن دهشتى حيال ذاك الرجل ، المملوء رجولة ، الفياض عزة وكبرياء ، انما كانت تنبعث من واقعة بسيطة . فلقد شببت وترعرعت فى بيئة عقلية بحتة ، لا تقدير فيها لغير العقل . وكان لداتى فى المدرسة ، والذين هم فى طليعة المتفوقين ، ضعاف البنية ، نحاف الأجسام مثلى ، فما كانوا يتنزلون لأن يعيروا أى التفات لأولئك المعتزين بقوتهم البدنية الذين يتخذونها ذريعة للأعمال الوحشية . وكان أساتذتى الذين أوثرهم بحبى وتقديرى ، وصحاب أبى ، ممتازين بالقوة العقلية لا الجثمانية . وكنت كلما تمثلت أبطال الروايات والقصص ، تمثلتهم أقوياء العقول لا الأبدان . وكان الكونت اندريه ، وقد جاوز الثلاثين من عمره ، يمثل التفوق البدنى . صور لنفسك ربعة فى الرجال ، شديد الاسر ، متين العضلات ، مفتول الساعدين عريض المنكبين ، ذا حركات تشف عن القوة والمرونة معا ، ووجه يتدفق الدم فى جوانبه ، وجبهة عالية تكسوها شعور سوداء ، وشارب فى لون شعر الرأس ، فوق شفتين مطبقتين ثابتتين ، دليل الارادة الحديدية ، وآية العزمة الجبارة ، وعينين سوداوين ، وأنف أقنى ، كل أولئك يخلع على صاحبه صورة الطير الجارح . ولو تمثلت الارادة لكانت ذاك الرجل . فهو الحركة مجسمة . وانه ليبدو ، كأن هذا الضابط الذى وقف حياته على التمرينات البدنية ، وأصبح على تمام الأهبة لكافة أعمال البسالة والاقدام ، لم يختل التوازن فيه بين التفكير والاقدام ، فهو إذا اعتزم أمرا لم يتردد ، ولم يتراجع

ولقد رأيته يمتطى صهوة جواده فيأتى بالعجب العجاب ، ويضع ورقة من أوراق اللعب على حائط ، ثم يقف بعيداً عنها ثلاثين خطوة ، ويحشو مسدسه بالرصاص ، فيصيب الهدف بعشر رصاصات متتالية . ورأيته يقفز الحواجز كما يصنع الرياضى المحترف ويثب فوق المائدة غير معتمد إلا على يديه

ولقد علمت أنه فى أثناء الحرب ، ولمّا يبلغ السابعة عشرة من عمره ، التحق بالخدمة العسكرية ، واندمج فى صفوف الجيش المحارب ، وخاض غمرات الحرب ، وقاسى أهوالها ، وكان يبث الشجاعة فى قلوب الجند المدربين

وانه ليكفينى أن أتعرفه ، فى تلك الليلة الأولى ، لدى تناول العشاء ، يأخذ طعامه فى سكون ، ويأكل بشهية ، شأن من تفيض الحياة فى جسمه شديدة قوية

وكان صموتا قليل الكلام ، وإذا تكلم ، فبذلك الصوت الملىء الدال على الحيوية والرجولة ، وبتلك اللهجة الثابتة الرزينة الدالة على تعود صاحبها الأمر والفه الطاعة ، فآمنت أنى حيال إنسان ، يختلف عنى ، ولكنه فى طرازه ، قد شارف الكمال ، ودنا من الغاية . وان أنس لا أنس ليلة رأيت المركيز يبدأ لعب الورق مع ابنته ، بعد الفراغ من تناول طعام العشاء ، وأنا أتحدث إلى المركيزة ، وأنظر خلسة إلى الكونت اندريه ، وهو يلعب « البليارد » وحده . فما راعنى إلا أن أرى جسما مرنا قويا ، وشابا قد وضع « سيجارا » فى جانب فمه ، يدفع الكرات بمهارة تبعث على

الاعجاب . فكنت ، وأنا تلميذك الذى يعتز بفكرته ، أتتبع ، فاغر الفم مشدوها ، حركات هذا الشاب، وهو مقبل على هذا النوع من الرياضة ، وقد فاضت نفسى إعجابا يشوبه الحسد ، فكان شعورى ازاءه شعور الراهب المتأدب الذى يجهل الرياضة البدنية ، ازاء فارس فى القرون الوسطى شاكى السلاح يختال فى درعه

وإنى ، حين أقول الحسد ، أتوسل اليك ، أن تتفهمنى ، فلا تعزو إلى دناءة برئت منها طوال حياتى . فما حسدت ، لا فى تلك الليلة ، ولا فيما تلاها ، الكونت اندريه ، على لقبه ، أو ثرائه ، أو مزية من تلك المزايا الاجتماعية التى توافرت لديه بينا أنا محروم منها . وما شعرت حياله بذاك الحقد الذى ينطوى عليه الرجل للرجل كما جلوت هذا الشعور فى الصفحات الرائعة التى أنشأها عن الحب . فلقد كانت أمى تدللنى ، وأنا طفل صغير ، فتملأ سمعى بأنى وضاء المحيا . وتبرع لى بتلك الشهادة نسوة سواها . وما كنت أخدع عن نفسى ، وان رأيت أن ليس فى ملامح وجهى ما ينبو النظر عنه . وأصارحك بذلك ، لا بدافع العجب والخيلاء ، ولكن لأدلك على أن الخيـــلاء لم تكن مثار ذاك التنافس الذى جعل منى ، منذ الساعة الأولى ، خصما ، بل عدوا لدودا ، للكونت اندريه ، دون أن يشعر هو بتلك الخصومة ، أو ذاك العداء . وأكرر أن ذلك التنافس كان يمازجه الأعجاب والكراهية معا

وكلما أمعنت فى التفكير ، بدا لى أن الشعور الذى أحاول أن أرسمه ،

لك إنما هو ميراث خلفه لى الماضى ، فانحدر فى نفسى ، وقر فى أعماق العقل الباطن . فلقد بدا لى أن أسائل المركيز ، وكنت أعلم أن تسآلى يداعب كبرياء النبلاء فى نفسه ، عن محتد أسرة « جوسات راندون » فتجلى لى أنهم من سلالة أقوام غزاة فاتحين ، على حين أن الدم الجارى فى عروق هذا الذى انحدر من أصل لورينى ، ومن سلالة مزارعين ، والذى يخط لك تلك السطور ، إنما هو دم قوم مغلوب على أمرهم . أجل ، هو دم الأجداد الذين عاشوا تحت أثقال الاستعباد ، واحتملوا نير الاستبداد ، طوال دهور ، ثم سرى إلى الأحفاد . حقا أن الفارق بين عقلى وعقل الكونت اندريه لهو كالفارق بينى وبينك ، يا أستاذى العزيز ، لا بل أن الفارق أبعد . فانا أستطيع أن أفهمك . واتحداه أن يفهم طرفا من تدليلى ، لا بل أن يفهم شيئا من هذا التدليل المنطقى الذى أسوقه الآن عن منشأ العلاقات بيننا . ولئن آثرت الصراحة لما قلت : إلا انى أنا متحضر ، وهو متبربر

ولعل منشأ خصومتنا ، الوراثة لا الحسد . فالأخلاق لا تتكون إلا على مدى الأجيال . ولقد كان كل شىء يحفر بينى وبين الكونت اندريه هوة عميقة مظلمة . على أنه ما كان يحفل بى إلا كما يحفل نبيل من النبلاء بشاب التحق بوظيفة مدرس فى أسرته

وطلب الكونت أن أتوجه إلى مكتبه لنتحدث قليلا . فلم يأبه لشأنى ، وتبينت فى الحال ان الغاية التى يرمى اليها ، ليست توثيق الروابط بيننا ، وإنما

هى أن يدلى إلى بآرائه الخاصة فى مهمتى كمدرس . وقد اتخذ لمسكنه جناحا فى القصر ، مؤلفاً من حجرة للنوم ، وأخرى للزينة ، وثالثة للاستقبال ، بها مقعد مستطيل ، وبضعة كراسى ، ومكتب كبير . فاما الحوائط فقد ازدانت بالأسلحة من كل طراز . فهذه بنادق مراكشية قد جىء بها من طنجة . وتلك سيوف وطبنجات من عهد الامبراطورية الأولى . وما لبثنا أن دخلنا الغرفة حتى لفت الكونت نظرى إلى خوذة جندى بروسى . ثم أشعل غليونه ، وتناول المصباح وألقى الضوء ، على طرف الخوذة النحاسى ، وهو يقول لى : « إنى لعلى ثقة بانى قد جندلت صاحب تلك الخوذة . وأنك لا تستطيع أن تقدر مبلغ شعور الغبطة حين يصوب الجندى بندقيته إلى عدوه ، ويسدد الرماية ، فيخر صريعا ، ثم يهتف من أعماق قلبه : « لقد نقص عدد الأعداء واحدا . . كان ذلك فى قرية لا تبعد كثيرا عن مدينة « أورليـــان » . . . وكنت أقوم بالحراسة ، على طرف من زاوية المقبرة . . وأشرفت على الحائط ، فلمحت رأساً يمر ، وينظر ، ثم تمثلت شبحا يبدو . . وأكبر ظنى أن جندياً ساقه الفضول ، فاقبل يتجسس ماذا نصنع . . وما أحسبه قد رجع ليقص ما قد رأى »

ثم وضع الكونت المصباح ، وبعد أن ضحك لتلك الذكرى ملء فمه ، عاود وجهه مظهر الخطورة والجد . ولقد اعتقدت أن الواجب يقضى ، من ناحية الأدب واللياقة ، بان أتناول جرعة من كاس تفضل الكونت بتقديمه إلىّ ، فيه مزيج من الكحول والمياه الغازية ، كرهته نفسى ، وتقززت منه

وقال الكونت : « لقد حرصت ، يا سيدى ، على أن أخاطبك منذهذا المساء ، لأكشف لك عن خلق « لوسيان » ، وأدلك على الوجهة التى ينبغى أن توجهه اليها . فلقد كان المدرس الذى تحل اليوم محله ، رجلا طيب القلب ، على أنه كان ضعيفاً متراخياً . ولقد أيدت ترشيحك ، لأنك شاب . والشاب أصلح لأداء المهمة التى تناط به أزاء لوسيان . . فالتعليم ، يا سيدى ، ليس شيئاً فى نظرى ، بل قد يكون فى بعض الأحيان أسوأ من لا شىء ، إذا كان يفسد الأفكار . . إن أعظم شىء فى هذه الحياة ، لا بل أن الشىء الوحيد ، هو الخلق . . . »

ثم وقف عن الكلام ، وكأنما كان يسألنى رأيى ، فأجبته بعبارة مبتذلة ، ولكنها عززت وجهة نظره

فمضى يقول : «حسن جداً . لقد تفاهمنا . أنك لا ترى فى الوقت الحاضر بفرنسا ، قوما مثلنا ، يؤثرون الجندية على كل صناعة أخرى . وطالما كانت فرنسا فى الداخل ، بين أيدى الأوغاد والأنذال ، وكان حقاً علينا ، فى الخارج ، أن نهزم ألمانيا ، فلم يبق لنا إلا مكان واحد يليق بنا وهو : الجيش . . . وإنى أحمد الله على أن أبى وأمى يشاطرانى تلك الآراء . وسيكون لوسيان جنديا ، والجندى ليس بحاجة إلى علم واسع غزير ، مهما يبدىء ويعيد أبناء اليوم . . . فاذا توافر له الشرف ، وثبات الجنان ورباطة الجأش ، وقوة العضلات ، وتوج كل أولئك بحب فرنسا العميق ، كان خير جندى يستبسل فى الدفاع عن وطنه ، ويلذ له الاستشهاد فى سبيل بلاده ،

ولقد عانيت ، أنا ، كل تعب ، واحتملت كل عناء ، فى سبيل الحصول على شهادة الدراسة الثانوية . . . أريد أن أقول لك ، إن هذا العام الذى يقضيه « لوسيان » فى الريف ، ينبغى أن يكون عام الرياضة فى الهواء الطلق ، واستنشاق النسيم ، وأن تروضه على أن يخشوشن فى حياته ، على أن تكون الدراسة مقصورة على مجرد المحادثة . وإنى ألفت نظرك بنوع خاص إلى أحاديثك معه ، فالواجب عليك أن تراعى الجانب العملى فى الأشياء ، وأن تشيد بذكر المبادىء . وأن فيه بعض العيوب التى يجب أن تدرأها من الآن . ستراه طيب القلب ، ولكنه رخو ، فينبغى أن تروضه على احتمال المصاعب . حتم عليه أن يخرج كل يوم ، وأن يمشى ساعتين أو ثلاثا . وهو لا يضبط مواعيده ، فأكبر همى أن يصبح فى مثل دقة « الكرونومتر » . وتراه يرتجل الكذب ارتجالا . وعندى أن الكذب هو أقبح الرذائل جميعا . إنى لأغتفر كل شىء يأتيه الانسان حتى الحماقات . فانا نفسى قد ارتكبتها . على أنى لا أغتفر فرية على الاطلاق . . . لقد بلغتنا يا سيدى ، عن طريق أستاذ والدى القديم ، معلومات قيمة عنك ، وعن حياتك لدى السيدة والدتك ، وعن كرامتك واستقامتك ، حتى إنّا لنعول على أثرك الطيب . وأن عمرك ليسمح لك أن تكون من « لوسيان » فى مركز الزميل والمعلم معاً . . . ، والقدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة ، هما خير وسائل التعليم جميعا . قل للجندى إن من الشرف أن تستقبل الموت ، فيصغى اليك دون أن يفهمك . لكن سر أمامه مستبسلا تره أعظم منك استبسالا . . . أما أنا فعما قريب التحق بفرقتى ، وسواء أكنت غائباً أم حاضرا ، فانك تستطيع أن تعول

على معاضدتى ، فى كل ما يجعل هذا الغلام رجلا يتفــانى فى خدمة وطنه ومليكه ، إذا قدر للملكية أن تعود

ولم يكن فى تلك المحاضرة التى نقلت اليك صورة صادقة منها ، مايدهشنى . فمن الطبيعى أن بيتا يضم أبا شيخا مختل الشعور ، وأما لا تصلح الا لادارة شؤونه ، وبنتا شابة ذات حياء وخفر ، تكون دفة القيادة بيد الابن البكر ، فيخاطب المدرس ، يوم مقدمه ، بمثل تلك اللهجة التى خاطبه بها . وكان طبيعيا أن جنديا نبيلا ، نبت فى بيئة النبلاء فاعتنق مذاهبها ؛ وشب وسط الجندية فتشبع بآرائها ، يخاطبنى فى لهجة الجندى النبيل . وأنك يا أستاذى العزيز بما فيك من قدرة على الاحاطة بالطبائع البشرية ، وبما أوتيت من قوة على ترتيب النتائج على المقدمات ، وربط المسببات بالأسباب ، واستخلاص الرابطة المحتومة بين المزاج والبيئة من جانب ، والتكوين العقلى من جانب آخر ، خليق أن ترى فى الكونت أندريه شخصية تسترعى الأنظار

وفيم كان اعدادى لكراستى إن لم يكن لجمع الوثائق التى من هذا الطراز عن الطبيعة البشرية ؟ والآن آمنت ان فلسفتى لا تجرى مجرى الدم فى عروقى ، والنخاع فى عظامى ، فان تلك المحاضرة التى تلتئم والمنطق ، وتتمشى وطبائع الأشياء ، بدل أن تدخل السرور على قلبى ، قد نكأت جرح الكراهية فى صدرى ، اذ شعرت بعزة نفسى المهيضة ، وكرامتى الجريحة ، وأحسست أنى الضعيف المهزول ، أمام القوى القادر . حقا لم أقم وزنا لأية فكرة أدلى بها الكونت . فلقد كانت آراؤه كلها فى اعتبارى حماقات ، وبدل ان أزدرى تلك الحماقات ، وأوليها الاغفال ، شأنى بها فى أى موقف آخر ، أحسست بمقتى

إياها وهى تتحدر من فمه . فاما عن صناعة الجندية التى تَغَنّى بذكرها فهى عندى : أتعس الصناعات جميعاً ، لما فيها من وحشية وضياع للوقت ، ولشد ما اغتبطت لأن كنت ولدا لأرمل معافى من بربرية الثكنات ، وبأساء النظام العسكرى . وأما بغض المانيا ، فقد آليت ان أستله من صدرى ، واستأصل شافته من قلبى ، مدفوعا بالاعتقاد أنه وهم من أسوأ الأوهام ، ومسوقا بالتقزز من رفاقى الذين كنت أراهم يندفعون فى طريق الوطنية الحمقاء ، واعجابا ، بل تقديساً لشعب أنجب « كنت » و « شوبنهور » و « لوتز » و « فجنر » و « هلمهولتز » و « فوندت » . وأما عن العقيدة السياسية فانى لأشعر قلبى الاحتقار لكافة الفروض التى يلبسها أصحابها تارة ثوب الشرعية ، وطوراً حُلَّة الجمهورية ، وأخرى رداء القيصرية ، زاعمين أن فى وسعهم أن يرتجلوا النظم السياسية للشعوب ارتجالا . ولكم كنت أشاطر صاحب « المحاورات الفلسفية » أحلامه فى وجوب أن يكون على رأس الشعب طائفة من الحكماء ، وان يستبد بالأمر فيه فريق من علماء النفس ، والاقتصاد ، ووظائف الأعضاء ، والتاريخ . وأما عن الحياة العملية فما كانت فى اعتبارى يوما الا الحياة المنتقصة ، فقد كنت أعد العالم الخارجى مجرد ميدان تنشط فيه الروح الطليقة لأجراء التجارب ، واستجماع الانفعالات . وأما ازدراء محدثى الكذب فقد عددته إهانة لحقت بى ، على حين قد أحرجتنى وكدرتنى تلك الثقة بخلقى المرتكزة على صورة ليست صورتى فى شىء . فالحق ان التناقض كان صارخا لذاعا . فلقد عددت نفسى على مثال الصورة التى رسمها لى صديق أبى القديم ، وكان

من دواعى غبطتى إن يحسبنى الناس على ذاك المثال ، وثارت ثائرتى حين رأيت الكونت اندريه لا ياخذ حذره منى

وإذا كنت قد أسهبت فى الكلام عن الليلة التى اعقبت قدومى إلى القصر فليس لأنها كانت ذات نتائج مباشرة ، فقد خرجت بعدان أكدت للكونت اندريه ان وجهة نظرى بشأن توجيه أخيه الصغير ، تطابق وجهة نظره ، ثم صعدت إلى غرفتى فاخذت نفسى بتسجيل تلك الأقوال فى كراستى التى أعددتها من قبل ، معقباً عليها تعقيباً يشف عن الزراية والاحتقار

ولقـــد ترددت على ذاك الشاب الذى يكبرنى بتسع سنوات أو عشر طوال خمسة عشر يوما ، فزاد يقينى بسموى عليـه . وما كنت أوثر أن أكون الكونت اندريه ، بلقبه ، وثرائه ، وتفوقه الجثمانى ، وأفكاره ، ولو أعطيت ثمناً لذلك ، أمبراطورية عظمى

ولقد وضعت الاقدار فى طريقى فتاة تملأ العين جمالا ، فكان من الطبيعى لشاب فى مثل سنى ، ان يسعى لأن يروق فى عينها . على انى كنت متوفراً على الدراسات العقلية ، فما كان يمكن أن تجوز تلك الرغبة بقلبى ، قبل أن تجوز بعقلى . وإذا كنت قد خضعت لجـال تلك الفتاة ، فقد خيل إلىّ ، أن مبعث خضوعى ، العقل لا الشعور . على إنى كنت أناجى نفسى فأقول : « لقـد شغفتنى شارلوت حبا ، لأنها كانت بارعة الجمال ، سامية الشعور ، نبيلة العواطف ، ولأنى كنت شاباً . واذا رحت أنقب عما أبرر به ذاك الحب ، فما ذاك إلا لأنى كنت معتزاً بافكارى بحيث أكبر ان أحب

على الصورة التى يحب بهـا غيرى من الناس» . ولكم كانت تلك المناجاة تروح عن قلبى !

وإنى لأرثى لنفسى بدل أن أنظر إليها نظرة التقزز والاشمئزاز ، كلما ذكرت أن الفكرة اختمرت فى رأسى ، وطفرت من رأسى إلى كراستى ، ثم وثبت من كراستى إلى دائرة التنفيذ العملى فى ظلام الحوادث وا أسفاه ! أجل ، لقد نبتت الفكرة ثم أزمعت تنفيذها ، فى دم بارد ، وضمير جامد ! وأية فكرة ؟ ان أخدع تلك الفتاة عن عفافها ، دون ان أتورط فى حبها ، لا شبع طلعة العالم النفسانى ، ولمجرد اللهو واللعب ، ولمحض العبث بنفس حية ، ولادرس العواطف فى عالم الحقائق ، بعد أن درستها بين عالم الكتب ، بل لاضيف إلى ثروتى العقلية ، تجربة جديدة

نعم ، ذلك ماأردت ، وما كان فى طوقى الا أريده ، فقد كانت وراثتى تدفعنى فى طريقه دفعاً ، وتربيتى تسوقنى إليه سوقا ، أضف إلى ذلك كله ، انتقالى الى تلك البيئة الجديدة التى قذفت بى اليها الاقدار ، والخصومة المشبوبة النيران ، بينى وبين أخيها الكونت اندريه

وكم كان خليقا بتلك الفتاة ، مثال الطهر والعفاف ، إن تلقى فتى غيرى ، فما أنا الا أداة تفكير عقلى لا ينبض فيها حس ، ولا يهتز فيها شعور ، ولا تخفق عاطفة ! وإنى كلماذكرت ذلك ، تمزقت نياط قلبى ، أنا الذى وددت دائما أن يكون فى مثل جفوة الطبيب ، ودقة تشخيصه . حقاً ، لقد لاحظت لأول ليلة رأيتها ، أنها لم تكن المثل الأعلى فى الجمال . على أنها كانت حلوة الملامح ،

رشيقة الحركة . لاتراها حتى تشعر بحالتها العصبية . نعم ، لقدكانت شارلوت مثال الشعور والحساسية حتى لتتجلى تلك الحساسية فى هزة يديها وشفتيها ، شفتيها اللتين تفيضان نوراً سماويا . وكان وجهها يشف عن قوة الارادة ، ونظراتها تنم عن « الفكرة الثابتة »

ولقدلمست بيدى طيبة قلبها ، وكان الفضل فى ذلك راجعاً إلى « لوسيان» الصغير . فقد روى لى أنها رجته ، غير مرة ، إن يسألنى عما اذا كان يعوزنى شىء فى غرفتى . وهذا وان بدا بسيطاً ، الا أنه بالغ الأثر فى نفسى ، فلقد كنت أشعر بالوحدة فى ذلك البيت الذى لم يعرنى أحد فيه التفاتا . فما كنت ألمح المركيز الا وقت تناول طعام الغذاء ، متدثراً فى ثوبه ، يخوض حديث صحته ، وحديث السياسة معاً . وكانت المركيزة مَعْنِيّة بتوفير أسباب الراحة له فى القصر ، وكان لها حديث ضافى الذيول والاذناب مع تاجر سجاد قدم من « كليرمونت » . فاما الكونت اندريه فكان يمتطى صهوة جواده فى الصباح ، ويخرج للصيد بعد الظهر ، فاذا أقبل الليل ، أخذ فى تدخين « سيجاره » دون أن يلقى الى بالا ، أو يوجه الى خطابا . وأما المربية والمتدينة ، فقد كانتا تنظران الى نظرات مريبة ، وكان تلميذى كسولا متخلف الذهن ، ولم تكن له من فضيلة ، الا أنه ساذج ، يسترسل الى بثقته ، فيفضى الى بكل ما أريد أن أعلمه عن نفسه وعن ذوى قرباه . وما لبثت أن تبينت منه ان ارادة الكونت اندرية كانت الباعث على اقامة الأسرة فى ربوع الريف هذا العام فما كان الأمر مثاراً لدهشتى ، إذ أحسست ، لأول وهلة ، ان الكونت أصبح رأس العائلة ، وصاحب الأمر والنهى فيها . *ولقد علمت انه شاء ، فى العام*

الماضى ، أن يزوج أخته من أحد رفاقه ، واسمه المسيو « دى بلان » فابت شارلوت ، وسافر هو إلى « تونكين » . ولقد علمت . . . لكن ما جدوى هذه التفصيلات ؟ وفى حصتى التدريس اليوميتين ، كنت ألقى كل عنا.لأحمله على الالتفات . فاذا جلس على كرسيه فى مواجهتى ، إلى الجانب الآخر من المكتب ، ينظر إلى ، وهو يسود الصفحات بخطه السيء الردىء . وكان يتبين فى وجهى أى أثر للذهول . وما لبث أن شعر بفطرته أنه كلما حدثنى حديث أخيه أو أخته ملت به عن الدرس . وما لبثت أن تبينت من ذاك الفم البرىء ، ان البيت الذى أحيا فيه غريبا ، يضم جوانحه على إنسانة تعنى بسعادتى وتفكر فى أمرى . ولقد كنت أشعر بالحاجة إلى أمى ، وإن غالبت ذاك الشعور فى نفسى ، وأكبر ظنى أن الحاجة إلى العطف والحنان هى التى استرعت انتباهى إلى الآنسة شارلوت

ولقد تكشفت لى ، فوق طيبة قلبها ، عن تعشقها للخيال . وما كان مبعث ذلك الشعور ، قراءة الروايات ، بل كان وليد حساسية مرهفة . وكانت فى ذلك على النقيض من أبيها وأمها وأخويها . وما تبينت طبيعتهم ، حتى نالها ألم ممض . وما كانت تبدو لهم ، بل ما كانت تراهم إلا لماما . وكان رأيها فيمن أحبتهم صادراً ، عن وحى قلبها ، وإذا رأيتها حسبتها ، زائفة الشعور أو اليفة ملق ورياء . قالت يوما لأمها ، وهى المادية العادية التفكير : « ما أرق عاطفتك يا أمى . . . » وقالت يوما لأبيها وهو مثال الأنانية البالغة : « ماأطيب قلبك يا أبى . . . » وقالت يوما لأخيها وهو من عرفت : « أنك لتدرك كل شىء يا أخى . . . » معتقدة ما تقول

على أن ذاك الوهم الذى كانت تضطرب فى سجنه تلك المخلوقة المتقدة ذكاءاً ، الفياضة رحمة وحنانا ، قد جعلها فريسة للعزلة الأدبية المطلقة ، محرومة من توافق الأخلاق ، إلى درجة تؤذن بافدح الأخطار . لقد كانت تجهل نفسها ، كما تجهل سواها . وآذنت تلك الزهرة بالذبول وهى فى إبان نضارتها إذ فقدت من يتفق وإياها فى الشعور . فلقد أحسست ، لأول مرة خرجنا معا للرياضة ، انها هى وحدها التى تشعر حقيقة بجمال الريف وروعته ، بربوعه الجميلة ، وتلك البحيرة الصغيرة ، وما يحيط بها من غابات ، والبراكين النائية ، وسماء الخريف البديعة الرائعة . وما إن راعها جمال الطبيعة حتى القت بنفسها فى ثنايا صمت عميق ، يخيل اليك أنها فنيت فى بهجة الوجود . فقدكانت لهـا خاصة الشعراء ، والعاشقات ، تفنى فيما يمس قلبها ، ويهز عواطفها ، سواء أكان الأفق الذى تكسوه السحب ، أم الغابة الصامتة الذابلة الأوراق ، أم القطعة الموسيقية التى توقعها مربيتها على أوتار « البيان » ، أم القصة المؤثرة التى تروى أمامها . لمست التباين بين الكونت الذى لم يخلق إلا لخوض غمرات الحرب ، وبين تلك الانسانة التى خلقت حنانا ورحمة ، تنطبع على شفتيها ابتسامة جمعت بين الترحيب وبين الحياء والخفر

سأفضى اليك بالحقيقة كاملة ، لأنى ما كتبت ، لأرسم لنفسى صورة خداعة ، بل لأصورها حقيقة ماثلة . ومابى من حاجة لأن أؤكد ، أن الرغبة فى حمل تلك الانسانة الرائعة على حبى ، بعد إذ بت أشعر بالغبطة كلما أظلتنى

وهى سماء ، كان مبعثها التباين بينها وبين أخيها . ولربما باتت نفس تلك الفتاة ميدان قتال بينى وبين أخيها ، تشب فيه حرب الكراهية التى أصارتها الايام حقداً متأججاً . نعم ، ربما انطوت تحت رغبتى فى الاغراء ، الشهوة الجامحة فى إذلال كبرياء هذا الجندى ، هذا النبيل ، بأن أجرحه فى أعز ما لديه فى هذا العالم . حقا ، إنى لأومن بينى وبين نفسى ، يا أستاذى العزيز ، إن ذلك الذى أفضى به اليك ، بشع شنيع ، لكنى لست تلميذك إن لم أعطك تلك الوثيقة التى تعرف بها دخيلة قلبي . وأما بعد ، فلن تكون تلك الصورة البغيضة ، إلا ظاهرة لابد منها ، كغيرها من الظواهر ، كروعة شارلوت ، وهمة أخيها ، ونفسيتى الغامضة التى دق فهمها حتى عليّ ، وتحجر ظلامها حتى فى عينيّ !

الأزمة النفسية الأولى

ما زلت أذكر جيداً ذلك اليوم الذى اختمرت فيه برأسى فكرة إغراء أخت الكونت أندريه، وخداعهـا عن عفافها، لا كرواية خيالية، بل كحقيقة واقعة. فبعد أن أقمت بالقصر شهرين متعاقبين، عدت إلى والدتى أقضى فترة العيد. وما رجعت من «كليرمونت» إلا منذ أسبوع. ولقد تساقط الثلج يومين كاملين. ولا شك أن برد الشتاء فى جبالنا قارس، وليس أدل على جنون مسيو دى جوسات، من إصراره على الاقامة فى ربوعها، واحتمال العيش فى تلك الأرض المقفرة التى تجتاحها العواصف الثلجية بين أونة وأخرى. وحقاً أن المركيزة كانت تحرص على توفير أسباب الراحة فى البيت مع القصد فى النفقات اليومية. ومهما كان ذاك الشتاء شديد الزمهرير، فقد كانت تقضى فيه أوقات مشرقة. فاذا كان النهـار مكفهراً، أقبل المساء فاذا السماء صافية الأديم، وإذا الربوع تتلألأ بأضواء السماء. وكان يوماً عبوساً قمطريراً يوم عقدت العزم على أن أخدع شارلوت عن عفتها. وكأنى أرى الآن البحيرة وقد كسا الثلج وجهها، وتحت طياته تنساب مياهها فى هوادة ورفق. وكأنى أرى قمم الجبال متوجة بالثلوج، وأشجار الغابة وقد اجتمع لها لون الثلج وأديم السماء. وان ذكريات لتثور فى نفسى، من تكلم الذكريات التى تنحدر فى أعماق النفس، ثم تهجع حتى توقظها الحادثات. فكأنى أرى القطيع يسوقه الراعى يتبعه كلبه. نعم، لكأنى أرى تلك الربوع جميعاً، والأشخاص الأربعـة الذين كانوا يتريضون فى الطريق المفضى إلى

« فونتريد » وأولئك هم : الآنسة « لارجكس » والآنسة شارلوت ، وتلميذى ، وأنا نفسى . وكانت الآنسة شارلوت ، فى ثيابها وفرائها ، تملأ العين روعة وجمالا . وقد بدا عليها ، كأنها نشوى بذاك النسيم ، بعد طول احتجابها فى القصر . وما لبثت أن تورد خداها . وكانت تغوص قدماها فى الثلج فلا تكاد تترك أثراً . وأبرقت أسارير وجهها حين شهدت جمال الطبيعة ، وتهللت بشراً حين رأت روعة الكون ، وتلك ميزة اختصت بها القلوب الساذجة الغضة التى لم يعرها الجفاف والتحجر من الاشتغال بالتدليل المنطق ، والنظريات المجردة ، والمطالعات الدائمة . وكنت أسير إلى جانبها وهى تسرع الخطى فما لبثنا أن تجاوزنا الآنسة « لارجكس » التى كانت تسير الهوينا . فاما الغلام فكان تارة يتقدمنا ، وطوراً يتخلف عنا ، ومرة يقف ، وأخرى يعدو . وبينا لوسيان وشارلوت فى سرور ومرح ، كانت ترتسم على وجهى سحابة من الكآبة ، ويحتبس لسانى عن الكلام . أفكان مبعث ذاك الشعور ، الحنق الذى يملأ صدر الانسان ، حين يلمح السرور بجانبه ، ثم لا يستطيع أن يساهم فيه بنصيب ؟ أم كان ذلك شروعا فى تنفيذ الخطة المدبرة ، للسطو على عفافها ، بان استرعى نظرها إلىّ ، وأشعرها بالفارق بين فرحها وترحى ؟ ومهما يكن من شىء ، فقد لبثت طوال نزهتنا ترسل عبارات الإعجاب ، بروعة الطبيعة وجمالها ، وكأنما كانت تدعونى لأن أشاطرها شعورها ، فما كنت أجيبها إلا بكلمات مقتضبة ، وأنا الذى الف التحدث اليها ، فاسرف فى الحديث ولا أقتصد . فلمحت سحابة الحزن التى تظلل وجهى . وأعادت البصر كرتين ، وفى فمها سؤال

حائر يتردد ، ثم اكفهر وجهها ، بعد أن كان متهللا . فانحدر مرحها إلى مستوى انقباضى ، واستطعت أن ألمح فى صفحة ذاك المحيا ، الطفرة من الشعور بجمال الطبيعة إلى الإحساس بآلامى . وظلت تغالب هذا الأحساس حتى غلبها ، فسألتنى هيابة مترفقة :

— « أتشكو ألما يا مسيو جرسلو ؟ »

— فقلت لها : « كلا يا آنسة »

— فعاودت السؤال : « هل أساء اليك أحد ؟ فانى أراك على غير ما الفت من عادتك . .

— فأجبتها « لم يسىء إلى أحد . ولكن هناك ما يبعث على الكآبة ، فاليوم ذكرى حزنى الذى لا أستطيع الافضاء به . . »

فنظرت إلى مرة أخرى . فلمحت فى عينيها اضطراب عواطفها ، كما تلمح حركة الساعة خلال صندوق من البلور . وكدت ألمس آثار قلقها حين أحست اضطرابى الذى أذهلها عن جمال الربوع . وإنى لأتمثلها الآن ، وقد اطمأنت حين علمت أن ليس لى عندها ظلامة . وكأنى أراها وقد أمضها حزنى ، فتطلعت إلى تعرف الأسباب والبواعث ولكن لم تجترىء على مواجهتى بالسؤال ، واجترأت بتلك الكلمة « معذرة إذا كنت قد سألتك » . ثم لزمت الصمت . وباتت تلك اللحظات القليلة كفيلة بان تكشف لى عن الحيز الذى أشغله من ذهنها . وكان خليقا بى ، حيال ذلك

الخلق السامى ، والشعور العالى ، أن اتوارى خزيا وخجلا من كذبى ، فقد أرتجلت الكذب ارتجالا ، حين زعمت أن ذلك يوم ذكرى حزنى العظيم . نعم ، لقد تبرعت بالاختلاق تبرعا ، ولشد ما كانت دهشتى كلما ذكرت جنوحى إلى اختراع الأكاذيب . ففيم صور لى خيالى أن اتبدى أمامها فى مظاهر الألم ، التى صيغت من خيال الشعراء ، وثياب الحزن التى حيكت من نسيج الاكاذيب ، على حين أن حياتى ، بعد موت أبى ، كانت راضية مرضية ؟ وهل كان الغرور هو الذى دفعنى لأن اكذب كما يكذب بعض الأطفال دون باعث أو مصلحة ؟ أم ظننت أن تلك الكآبة المصطنعة ، وذلك الحزن المتعمل ، وذاك المظهر المسرحى ، كل أولئك كفيل باحكام الشرك الذى أعددته لاصطياد أخت الكونت اندريه ؟ لست أقدر على وجه التحديد البواعث التى كانت تضطرب فى نفسى اثناء نزهتنا حقاً انى لم أتبين تماما أثر حزنى المصطنع ، وكذبى المرتجل ، على أنى ما لبثت أن شعرت بذاك الأثر حتى اعتزمت المضى إلى النهاية ، لأرى ماذا تكون خاتمة المهزلة التى بدأت بتمثيلها فى يوم مشرق من أيام شهر يناير ، على مسرح من مسارح الطبيعة كان خليقاً بادوار غير تلكم الأدوار

لقد شعرت من ذاك الحين أنى أوحى إلى قلب شارلوت أصدق العواطف وأكرمها . فما كانت السياسة النفسية التى أخذت نفسى بتطبيقها الا عملا بغيضا ممقوتاً لا يصدر إلا عن ذهن فتى ناشىء فى علم القلب . وما كنت أدرى كيف أتزود من شذى تلك الأزهار النابتة فى تلك النفس الكريمة.

وما كان عليّ الا أن أتذوق هاتيك العواطف التى طالما تعطشت إليها ، ووددت أن أنهل من مواردها العذبة ، لأحيا حياة العاطفة التى تتمشى مع حياتى العقلية . ولكنى قد أسرفت فى التفكير حتى تحجر قلبى . وأحببت أن أخضع نفسا قد رفعت راية التسليم . ولجأت الى المواربة حيث ينبغى أن أكون صريحاً . وعمدت الى الدوران واللف ، حيث يجب ان أكون بسيطا ، واليوم قد عز عليّ حتى هذا العزاء الرخيص ، فلا أستطيع ان أقول لنفسى إنى قد وضعت مأساة حياتى عن طواعية واختيار ، فرسمت مناظرها ، وهيأت حوادثها ، ورتبت سياقها . فلقد كانت نفسها مسرحاً لتلك المأساة دون أن أدرك من أمرها كثيراً أو قليلا ، تلك المأساة التى قام الموت والحب بتمثيل أدوارها ، وهما يسخران من فلسفتى . وإنما أحبتنى شارلوت لبواعث غير تلك البواعث التى ابتدعتها فلسفتى الفجة . ولقد قضت بعد أن تملكها اليأس ، حين تكشفت لها دخيلة نفسى . وفاضت نفسها تقززا منى ، فعلمت ان آرائى لم تهز عواطفها فى كثير أو قليل . ولقد حسبت ان ذلك الحب لاينطوى الا على مسألة عقلية . فاخطأ حسابى ، وأصبحت امام حب يفيض حنانا صادقاً عميقاً ، وأنا لا أشعر بروعته . فلماذا كنت أغفل بالامس ، عما يتجلى لى اليوم ؟ لقد كان من الطبيعى ان تخطىء فى تقديرى فتاة تهيم فى بيداء العواطف ، وتحلق فى أجواء الخيال . ولقد أضنانى الدرس حتى بات مظهرى يثير العطف ، ويبعث الرحمة فى قلوب النساء . وكان لتربية أمى أبلغ الأثر واعمقه فى نفسى ، فنشأت وديع الطباع ، رشيق الايماءة حلو الحديث ، يحجب تجمل شخصى ، سوء حركاتى . وقدمت للأسرة على

أنى شاب حر النزعة ، رضى الخلق . فليس عجيباً أن تصبح تلك العوامل مجتمعة مثاراً لاهتمام شابة نبيلة العواطف ، تشعر بالعزلة فى البيئة التى تعيش فيها . وما لمست فيها ذاك الشعور حتى فكرت فى استغلاله . ولو أتيح لأحد أن يرانى فى غرفتى وحيداً طوال الليلة التى أعقبت تلك النزهة ، جالساً إلى مكتبى ، مقبلا على الكتابة ، وعلى كثب منى مجلد ضخم فى التحليل النفسى ؛ لما آمن أن الذى يراه ليس الا فتى لم يكد يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، وأن ذاك الفتى يطلق لفكره العنان فى سبيل تفهم العاطفة التى يود أن يبعثها ، فى قلب فتاة بلغت عشرين ربيعا . . . ولم تبق فى القصر عين لم يأخذ الكرى بمعاقد أجفانها . وما أحسست الا وقع أقدام خادم سعى ليطفىء المصابيح . وكانت الرياح تهب على جوانب القصر ، ولها شجو الأنين تارة وشدو الألحان طوراً . وكان ارعاد العاصفة وابراقها يضاعف شعور الوحدة فى صدرى . وكانت النيران تضطرم فى الموقد ، فى سكون وصمت . وظللت أسطر فى كراستى تاريخ يومى ، والخطة التى دبرتها لأخضاع الآنسة شارلوت لسلطانى . وأسلمت تلك الكراسة للنيران غداة القبض على . وما أنس لا أنس أنى نقلت اليها العبارة التى كتبتها عن الرحمة فى كتابك « نظرية العواطف » . وهاك العبارة : « ان ظاهرة الرحمة تنطوى على عنصر عضوى وهى لدى النساء تجاور الانفعال الجنسى . . . » فتوسلت بالرحمة إلى قلب شارلوت . وتلمست طريق حبها من تلك الناحية . وأحببت ان استغل أولى أكاذيبى التى هزت عواطفها ، ثم أحيطها بشباك من نسج الأكاذيب ، وان

أحملها على حبي من طريق الرثاء الحالى . ولكم كان ذاك الاستغلال الدنىء لعاطفة كريمة فى سبيل اشباع شهوة الفضول يتناقض مع الأوهام الشائعة ، فلا عجب أن يداعب كبريائى . فبينا كنت أرسم خطة الاغراء ، مدعمة بالأسانيد الفلسفية ، قدرت ماذا يقول عنها ، الكونت أندرية ، إذا أتيح له أن يرى من أعماق الثكنة العسكرية ، ويكشف عن الكلمات التى يخطها قلبى . ولما أزمعت درس عقل المرأة ، خيل الى أنى « كلودبرنار » أو « باستور » أو واحد من تلاميذهما . أولئك علماء يضعون الحيوانات على المشرحة وهى حية لأجراء التجارب فيها ، فمالى لا أشرح النفس الانسانية كذلك ؟

وإذ أردت أن أستخلص النتيجة المبتغاة من الرحمة التى جاشت بصدرها ، لم تكن لى مندوحة عن موالاة استثارتها . فتماديت فى تمثيل مهزلة الحزن التى ابتدعتها أوهامى ، وصاغها خيالى ، وأتبعتها بأخرى تدعو للرثاء ، وتهييج الرحمة .

وفى الأسبوع الذى أعقب رياضتنا اصطنعت الكآبة اصطناعاً ، لا فى حضرة شارلوت وحدها ، بل أمام تلميذى ، علماً بانه سيروى حديث ذلك الحزن الذى يملك علىّ مشاعرى . فانت ترى فى ذلك الدليل القائم ، والحجة الناهضة ، على عبث الخديعة والمكر ، اللذين رضت نفسى على الاعتصام بهما . أفكانت بى حاجة لأن أزج بهذا الطفل الغرير فى مثار تلك الدسيسة ؟ وكيف طوع لى ضميرى أن أدفع به فى غمار تلك المأساة وهو الذى عهدوا إلى بتربيته ، وتغذيته بالمبادىء الصالحة ، وغرس

الفضائل فى نفسه ؟ وعلام الخب والخديعة ، والآنسة شارلوت تثق بى ثقة لا تشوبها شائبة ؟ على أن ظلام الوجدان ، وتحجر العواطف ، قد طوعا لكبريائى ان يفتن فى مضاعفة الحبائل .

وكان «لوسيان» يتلق درسه فى حجرة كبيرة أسموها حجرة المكتبة لما احتوت من كتب

وكانت من بينها دائرة المعارف الكبرى . مما خلف منشىء القصر ، وقد كان من عظماء النبلاء الذين يميلون إلى الفلسفة ، فشيد ذاك الصرح العظيم ، فى ربوع الجبال ، لينشىء ولديه فى أحضان الطبيعة ، وليطبعهما على غرار « اميل » لما تخيله « روسو » فى كتابه عن التربية . وقد علقت صورة مشيد القصر فى جانب ، وصورة امرأته فى الجانب الآخر . فلبثت أتطلع إلى تينك الصورتين ، فاسائل نفسى عما كان يصنعه أجدادى . و كأنى أراهم ، يدفعون المحراث ، يفلح الأرض ، ويروون الكروم ، تحت سماء اللورين الملبدة بالسحب ، كما يصنع أولئك القرويون الذين ، أراهم يمرون أمام أبواب القصر ، ولما اضطربت تلك الخواطر فى ذهنى . ثارت ثائرة الانتقام فى نفسى ، وآليت ألا أستقر ، أو أبلغ الغاية . ومن عجب ، أنى وأنا أمقت مذاهب الثورة الفرنسية ، وما تنطوى عليه من الخيالات ، كنت أشعر بالغبطة فى أعماق نفسى ، حين أظن أنى قد أغرى حفيدة ذاك النبيل العظيم ، وتلك السيدة العظيمة ، بقوة الفكر وحدها على حين أنى من عامة الشعب . فأسندت رأسى إلى يدى ، وأشعت مظاهر الحزن فى أسارير وجهى . علماً بأن

« لوسيان » يرقب حالتى ، ولما رآنى كذلك توهم أن منشا حالتى هذه عدم رضاى عنه . وفى ذات صباح اجترأ أن يسألنى :

— هل أنت غاضب منى يا مسيو جرسلو ؟ »

— فأجبته وأنا أربته : « كلا يا بنى» . وظللت فى مظهر الحزن المصطنع والثلج يتساقط على زجاج النوافذ . ولبث يهطل حتى غطى الربوع ، ولف الجبال فى غلالة من الصمت العميق ، وباتت السكينة ترفرف بجناحيها . على جوانح القصر . فأعاننى حزن الطبيعة على تمثيل حزنى . فاسترعيت نظر شارلوت ساعة اجتماعنا . وفى قاعة الطعام . قرأت فى عينيها آيات رثائها لى . والعجب لحالى . وكذلك كانت كلما رأيتها أثناء تناول الشاى . أو طعام العشاء ، أو فى وقت السمر . إذا لم أسرع نحو غرفتى بدعوى وجود عمل لا بدلى من إنجازه . وكانت حياتها تجرى على وتيرة واحدة . وكان الحديث الذى يملأ سمعها حديثا معادا . فلم تستطع أن تغالب الأثر الذى تركه فى نفسها حزنى المحجب بالأسرار . وبات المركز فريسة للاضطراب ساخطا على الساعة التى آثر فيها العزلة . ولطالما لهج بانه لا يلبث أن يصحو الجو حتى يسارع إلى الرحيل جاهلا أن ذلك أمسى ضرباً من المستحيل فهل نسى أو تناسى أن الرحيل اليوم يكبده عظيم النفقات ؟ وأين يذهب ؟

وكان يرقب زيارة أصحابه الذين يغدون عليه من « كليرمونت» وكثيرا ما كانوا يحضرون لتناول الغداء إذا لم تعقهم رداءة الطقس ، ووعورة الطريق وإذا ضاق صدره عمد إلى لعب الورق ، على حين أن المركيزة ، والمربية ،

والمتدينة ، كن يتفرغن لمشاغلهن · وبينا كان لوسيان يتصفح كتب الصور كنت أتخير مكانى بحيث ترانى شارلوت وهى تلعب الورق مع أبيها . وصح عزمى على أن أتسلط على إرادتها ، تسلط المنوم على من يريد تنويمه واخترت أن أخترع لها قصة تبرر حزنى . وتوضح مسلكى . ليتم لى الاستيلاء على شعورها

وأخذت فى تلفيق القصة على ضوء مبدأين أوردتهما ، فى الفصل الذى عقدته عن الحب . فما من شك فى أن كتابك و كتاب « أمراض الارادة » لمسيو ريبو قـــد أصبحا نبراسا لحياتى . والآن أرجو أن تأذن لى بايضاح هذين المبدأين

فأما المبدأ الأول فيتلخص فى أن التقليد هو منشأ المشاعر لدى الكائنات جميعاً . فالحب لدى الانسان ، إذا ترك إلى الطبيعة وحدها ، بات كالحب لدى الحيوانات ، لا يعدو أن يكون غريزة شهوية ، إذا أشبعت الشهوة ، لم يلبث أن يزول

وأما المبدأ الثانى فخلاصته أن الغيرة قد تسبق الحب ، وبذلك يمكن أن تخلقه خلقاً فى بعض الأحيان . كما يمكن أن تظل بعد زواله

فلما تجلى لى هذان المبدآن استقر رأيى على أن تكون القصة التى أرويها أمام الآنسة شارلوت ، تجمع بين استثارة خيالها ، واستفزاز خيلائها . فلقد عرفت كيف أثير عاطفة الرحمة فى قلبها ، فالآن ينبغى لى أن أضرم نيران

الغيرة فى صدرها ، وأهز شعور الخيلاء فى نفسها . فبنيت قصتى على أساس ذلك الرأى القائل : كل امرأة تميل إلى رجل لا يلبث كبرياؤها أن يجرح إذا عرفت أنه يشغل قلب أخرى

ومضى خمسة عشر يوما على بدء التجربة ، ووضع تلك النفس البشرية فى معمل التشريح ، وهيأت لى الضحية بنفسها الفرصة لأقص القصة التى كانت بمثابة الشرك فقد بدا للبركيز أن بين مجلدات دائرة المعارف مجلدا خاصاً بايضاح مختلف ألعاب الورق . وأحب أن يبحث فيه عن بعض الألعاب القديمة ليحاول أن يلعبها وقد دعاه إلى ذلك ما قرأه فى بعض الصحف عن لعبة جديدة تدعى « البوكر » تولى الكاتب شرحها وعرض لذكر طائفة من الألعاب القديمة . فصعدت ابنته إلى غرفة المكتبة فى الحال ، حيث كنت مشغولا بتدوين بعض الملحوظات فأحضرت لها المجلد الذى تطلبه ، فتناولته من يدى ، بعد أن نفضت عنه الغبار ، وتلطفت فقالت لى :

— « أرجو أن نكتشف فيه بعض الألعاب يتاح لك الاشتراك معنا فيها . . . فانا لنخشى أن تضيق صدراً ، أو نراك محزوناً . . . »

وخيل لى أن الفرصة سانحة ، فى هذه الفترة القصيرة كى أشكو إليها همى وبثى ، فأجبتها :

— آه يا آنسة لو تعلمين حياتى . . . ! »

ولولم تكن سريعة التصديق ، نزاعة إلى الخيال ، لشعرت بأن تلك

العبارة إنما هى براعة الاستهلال فى قصة من نسج الخيال ، ثم طفقت أروى لها أنى كنت قد خطبت فتاة من « كليرمونت » ولكن فى الخفاء ، واعتقدت أنى أخلع على روايتى ثوب الشعر ، حين ألقى فى روعها ، أن تلك الفتاة كانت روسية قدمت لزيارة بعض ذوى قرباها . ثم أضفت إلى ذلك أنى أفضيت اليها بحبى ، وأنها كاشفتنى بحبها . وأنا أقسمنا بكل محرجة من الايمان على الوفاء ، وعلى أن أسكن إليها ، وتكون بيننا مودة ورحمة ، نتقاسم السراء والضراء ، ونحتمل الحياة بخيرها وشرها . وحلوها ومرها ولكن ما بدت لها صفقة زواج رابحة حتى نكثت العهد وضحت بى فى سبيل المال

وكذلك ضربت على نغمة فقرى حتى ألقيت فى روعها أن أمى تعيش من فضل كسبى ، وارتجلت الأكذوبة الأخيرة وحى الساعة ، فقد فرغ علماء النفس من تقرير أن الرياء يتضاعف كلما أوغل المرء فيه . وما كنت أجيد تلك المهزلة الصبيانية . على أن شارلوت كانت بحاجة إلى نظراتك ، لتمزق القناع عن وجه ريائى . حقا ، لقد كان يمكن أن يعزى مظهر اضطرابى إلى إثارة تلك الذكريات فى نفسى . على أنى احتفظت برباطة جأشى وأنا أفيض بتلك الأكاذيب ، فاتيح لى أن أرقب شارلوت عن كثب . فأصغت إلى ، ولم تبد عليها مظاهر التأثر والانفعال وهى تنظر إلى الكتاب الذى اعتمدت يدها عليه ، فلما فرغت من حديثى تناولت الكتاب وقالت بلهجة لا تشف عن شعورها

— « لست أدرى كيف استرسلت فى الثقة بتلك الفتاة التى ألقت بسمعها إليك دون علم أهلها . . »

ثم حملت الكتاب ومضت بعد أن أومأت برأسها إيماءة لطيفة . وكم كانت بارعة الحسن ، رائعة الجمال ، هيفاء ، وضاءة المحيا ! فارجو أن تبين لى ، وأنت العليم بالنفس الانسانية ، كيف بدت لى روعتها ، وأنا أكذب عليها ، وأسرف فى الكذب . نعم ، لقد أيأسنى جوابها ، على حين كان ينبغى أن يبعث فى نفسى الرجاء . فما أدركت أن مجرد إصغائها إلى ، على بعد ما بيننا ، يعد آية من أقوى آيات العطف . وما حسبت أن تلك العبارة التى يشوبها شيء من القسوة ، والتى جاءت جوابا لافضائى بسر خداع غرار ، إنما أملتها الغيرة التى أردت ايقاظها فى صدرها ، وأوحت بها الرغبة فى تبرير موقفها منى . فكما أنها لم تستطع أن تستشف الاختلاق فى ثنايا روايتى ، كذلك لم أستطع أن أرى الحقيقة التى تضمنها جوابها . فشيعتها بنظراتى ولبثت أشهد تهدم صروح آمالى . كلا ! انى لا أسترعى نظرها ، ولا اثير اهتمامها ، إلى حد أن أصير ذاك الاهتمام شعوراً ملتهبا ، وعاطفة متأججة . وهل كنت من الغفلة بحيث أظن الأوهام حقائق ، والأمانى صروحا مشيدة ؟ فاقبلت أزن الأمل فى خداعها عن عفافها وأسأل أى دليل على التفاتها إلى ، واهتمامها بشأنى ؟ لئن كانت قد اهتمت براحتى المادية فما ذلك إلا لأن قلبها ينبوع رحمة وحنان . ولئن أرادت أن تتعرف مبعث حزنى ، فانما دفعها حب الاستطلاع . ولئن سألتنى عن حالى برفق فتلك شيمة فتاة كريمة العواطف . واذن فما كانت المهزلة التى لعبت أدوارها أسبوعين كاملين ، والأكاذيب التى أخترعتها عن مأساة حياتى ، إلا مناورات

مضحكة لم أخط بها خطوة واحدة نحو ذلك القلب الذى أحببت أن أبسط سلطانى عليه . وباتت تلك الكلمة الصغيرة الجافة التى انحدرت من فم شارلوت ، كافية لأن أحكم على نفسى بتلك الصورة ، فى الفترة التى أعقبت حديثنا . ولطالما كنت فريسة للتحليل المنطق الذى يلقى على ماء يطفىء جذوة حماستى ، كما يخمد فورة البخار

لشد ما كنت محلقا فى سماء الاوهام حين ظننت انى أعبث بآراء شارلوت كما يعبث أخوها بكرات « البليار » ! وعلى الرغم من وفرة مطالعاتى ، فقد حسبت العواطف من السهولة والبساطة بحيث يستطيع المرء أن يوجهها أية وجهة يريد ! ولمست خطأى فيما بعد . فاذا شئت أن تتعرف ظواهر القلب فول وجهك شطر عالم النبات لا ميدان الصناعة . وان أحببت أن تنبت تلك الظواهر فاعمد إلى طرق البستانى وأساليبه ، فهيء التربة أولا ، ثم الق البذور ، وتعهدها بالسقيا ، وحطها بالعناية والرعاية . فالشعور ينبت ، ثم ينمو ويترعرع ، ثم يجف ويذبل ، كما هو الشأن فى النبات . وقد يكون التطور بطيئا ، وقد يكون سريعاً ، على أنه غير محسوس فى كل حال

ان بذور الرحمة والغيرة التى القيتها بنفس شارلوت قد آتت ثمارها ولكن بعد حين . لقد ظنت الفتاة أنى أحب غيرها ، فلم تشعر بالحاجة إلى الدفاع عن نفسها . على أنه كان ينبغى كى أحسن التقدير ، وأزن الأمل ، ان أكون « ريبو » أو « تين » أو « ادريان سكست » لأ تعرف تلك النفسيات العاليـة . أما أنا فأشهد انى كنت على مثال ذاك الذى يسير فى

سهل ، غير عالم أن فى بطن الأرض بذورا لا تلبث أن تؤتى خير الثمرات . وقد يلتمس العذر لذاك ، لكن ما عذرى أنا وقد ألقيت البذور بيدى ، ولم أرقب لها نمواً أو ثمرة ؟

وضاعفت الأيام خيبة رجائى أن أحمل شارلوت على حبى . فما كانت تخاطبنى الا لماما . ثم علمت ، من اعترافها لى ، أنها كانت تخفى وراء ذاك السكون الظاهر ، اضطرابا ينمو ويشتد ، وظلت تغالبه فيغلبها ، بحدته وقوته وعميق اثره . ولبثت كأنها مشغولة إلى حين يدرس المركيز لعبة النرد التى عثر عليها خلال تصفحه دائرة المعارف . ولما ذكر أن لعب النرد كان محبباً إلى قلب جده ، عدل عن دراسة كافة الألعاب الأخرى . وكذلك كان يقضى المركيز شطراً من الليل فى اللعب مع ابنته . وما كان يعفيها من تلك السخرة الا حضور القس « برتموف » . ومن عجب أن المركيز لم يسألنى عم إذا كانت نفسى تهوى اللعب أو تعافه . وكنت أوثر أن أتصفح كتابا ، أو أتصفح وجوه الحاضرين ، ولكنى شعرت بالذلة إذ يفرق بينى وبين القس . وإن كان هذا نصيب كل من يقيم بين ظهرانى قوم يرون أنه أدنى مرتبة منهم ؟ ان كل تفرقة فى المعاملة تجرح عزة النفس . وكأنى كنت أثأر لنفسى حين ألاحظ أن القس يشعر نفسه الاعجاب بأهل القصر عامة والمركيز خاصة ، اعجاباً يبلغ حد التقديس . فاذا أقبل القس ، وأطلقت لشارلوت حريتها ، جلست تعمل إلى جانب والدتها . وحين أخفقت فى حبها إياى أصبحت أشعر بالقسوة نحوها

لقد وقعت فى شباك غرامها ، بدل أن أوقعها فى شباك غرامى .

أجل ! لقد كانت الآنسة شارلوت مدفوعة نحوى بحب وليد ناشىء تجهله ، وكنت أنا مسوقاً إليها بالعوامل والاعتبارات التى بسطتها فى مؤلفاتك ، ومع قضائنا كثيراً من ساعات النهار معاً ، فما كان أحدنا يشعر بشعور صاحبه

وفى ذات مساء كان المركيز يحدث امرأته عن مقال ظهر فى إحدى صحف الصباح . يحدث عن فرح أقيم لدى بعض أصحابهم ورأى المركيز الصحيفة بيدى ، فقال لى :

— « هل لك أن تقرأ لنا هذا المقال يامسيو جرسلو ؟ . .

فلما بدأت أقرأ ، أخذت الدهشة تستولى على المركيز ، إذ رآنى أحسن القراءة فلما انتهيت منها صاح قائلا !

« إنك لتقرأ جيداً جيداً ، جداً . . . ! » « فيحسن أن تقرأ لنا فى المساء قليلا . . . فذلك أجدى علينا من لعب النرد . . . أما لو عاد الثلج يهطل فلن نمكث هنا ثمانية أيام ... وهنا ضحكت شارلوت فقال أتضحكين يا شارلوت ساخرة من أبيك . . . وأى كتاب تتخيره لنبدأ به . . . ؟»

وكذلك ألفيت نفسى مسوقا إلى عبودية جديدة ، فلم أدر أتتمشى مع دراستى أم لا ، فقد كنت أحمل معى كل مساء كتابا أدرسه ، تأهباً لنيل إجازة الآداب ، دون أن أغادر « لوسيان » . على أنى لم أحاول الخلاص من

تلك السخرة الجديدة ؛ بل لم أتبرم بها . فقد نظرت إلىّ شارلوت نظرة تشف عن التوسل ، والتماس التجاوز عن خشونة أبيها

وخطر لى أن أستغل مشروع المطالعة ، لتمهيد طريق الاغراء ، وتهيئة الجو لاصطياد الفريسة ، وبخاصة أن نظرة شارلوت أحيت موات الأمل فى صدرى . فلما سألنى المركيز عن الكتاب الذى أتخيره أجبته بأنى سأجد فى البحث عنه . ثم بحثت عن كتاب يهيء لى سبيل الدنو من الفريسة التى أمعنت فى التحليق حولها ، كما تحلق الصقور حول صغار الطير لتنقض عليها ، وتنشب مخالبها فيها لكن كيف السبيل إلى رواية تثير عواطف شارلوت ولا تخدش الحياء ، فتستطاع قراءتها بمسمع من الأسرة مجتمعة ؟ نقبت فى المكتبة حتى أعيانى التنقيب . وأخيراً هدانى البحث إلى رواية « أوجينى جرندى » فجاءت متمشية مع الغاية التى أرمى اليها ، وحبذ المركيز قراءتها

وما لبثت ان قرأت الصفحات الأولى فيها حتى نام المركيز ملء جفونه وانصرفت المركيزة والآنسة « لارجكس » والمرأة المتدينة إلى الحياكة دون أن يبدو منهن ما يدل على الاستحسان أو الاستهجان ، واشتغل « لوسيان » بتصفح كتاب صور . وكنت أرقب شارلوت حين القراءة فارى مشاعرها تهتز تحت سلطان العبارات كما تهتز أوتار القيثارة تحت مضرب العازف . وشعرت بالأثر الذى تركه فى نفسها حب أوجينى وابن عمها شارل

وما من شك فى أن كل رواية غرامية كانت خطراً على شارلوت فى

الأزمة النفسية التي تجتازها ، والعواطف الثائرة التي تتنازعها . ولو كان الأب والأم يملكان شيئاً من قوة الملاحظة إذن لاستطاعا أن يلمسا ذاك الخطر في وجه ابنتهما خلال الثلاث الليالي التي استغرقتها المطالعة

وأقبلت الآنسة شارلوت على المكتبة تقول : « إني لا أستطيع أن أملأ ساعات فراغي . . . فأود أن أسترشد برأيك في مطالعاتي . . . فالكتاب الذي تخيرته بالأمس قد أدخل السرور على قلبي . . » ثم أضافت : « إن مطالعة الروايات تضيق صدري على أني قد آنست في تلك الرواية متاعاً وسلوى »

وما ملأ كلامها سمعي حتى شعرت بالغبطة التي شعر بها الكونت أندريه حين لمح جندي العدو يطل برأسه ليستطلع أحوالهم فصوب اليه بندقيته ، وأرداه قتيلا . أما أنا ، فقد خيل إلي ، أن الفريسة ، باتت هدفا لرمايتي . وهل من شك في أنها حين أقبلت تسترشدني فيما تطالع ، قد هيأت نفسها لأصيب منها مقتلا ؟ فوعدتها أن أقدم اليها في الغد ثبتاً بالكتب التي تطلبها . ثم ما لبثت أن اخترت لها طائفة من الروايات التي تفيض بالعواطف . وشفعتها بخطاب يحمل تقديري لكل كاتب ، فكان ذاك الخطاب هو كل ما احتفظت به شارلوت فعثر عليه المحققون بعد موتها ، فاستنتجوا أنه كان البدء في مطارحة الهوى . ويالها من مطارحة غريبة كانت على النقيض من الطموح إلى الزواج الذي عزاه أولئك الحمقى إلي ! وإذا لم يكن امتناعي عن الدفاع عن نفسي ، مبعثه الكبرياء الذي سأكشف لك عنه في ختام تلك

المذكرة ؛ فانى لألتزم جانب الصمت تقززاً من تلك العقول الجامدة التى لا تستطيع أن تدرك ، أن الفكرة ، والفكرة وحدها ، هى التى أوحت إلى بما صنعت ، وأملت على ما أتيت . لكن قضاتى الذين يجلسون فى منصة العدالة للبت فى مصيرى ، أنت يا أستاذى العزيز ، وطائفة أخرى من أمراء الرأى العصرى . حينذاك أستطيع أن أتكلم ، بأعلى صوتى ، وملء فمى ، كما أصنع الآن . على أنك تعلم أنى كنت مسوقا ، رغم أنفى ، إلى ذلك المصير المحتوم ، ولكن هذا المجتمع الذى يتغذى بالأكاذيب ، يأبى إلا أن يعيش بمعزل عن العلم ، ذاك العلم الذى كانت وجهتى خدمته حتى فى تلك الفترة التى كنت أفكر فيها أن أخدع شارلوت عن عفافها

وأرسلوا فى طلب الكتب من « كليرمونت » ولم تكن للمركيز أية ملاحظة عليها . على أنه كان ينبغى أن يكون للمرء عقل غير عقل المركيز ليدرك أن ليست هناك كتب سيئة . وإنما هناك فترات سيئة لقراءة خير الكتب . وماأصدق الشبه بين الجرح الذى تحدثه فى المخيلة بعض المطالعات ، وبين الجروح الناشئة فى الجسم المسمم بمرض السكر . فالوخزة البسيطة قد تحدث به نغراً يوشك أن يهلكه

واتخذت الآنسة شارلوت تلك الكتب وسيلة لتعرف حالى ، وتفهم طريقة شعورى ، وتفكيرى ، ونظراتى للحياة وللأخلاق . فكانت كلما قرأت جانبا منها أقبلت تسائلنى

وخلا لى الجو كى أتحدث إلى شارلوت طيلة النهار . فكانت تبدو فى

الصباح حين أتناول الشاى مع تلميذى ، متذرعة بالاشتراك معنا فى تناول الشاى ، وتجلس إلى المائدة فتتحدث طويلا . ثم تقبل إلى المكتبة فأراها ، وأتحدث اليها . وكنت القاها قبل الطعام وبعده . وكنا نخرج للرياضة فى بعض الأحيان ، المربية ، وشارلوت ، وتلميذى وأنا . ونجتمع لتناول الشاى لدى الساعة الخامسة ، فأجلس إلى جانبها

ولبثت زهاء شهرين أتحبب إلى شارلوت . فما كنت أبغى أن أتسلط على خيالها ، وإنما كنت أبغى أن أحملها على حبى . ولكم فكرت فى أن أضمها بين ذراعى ، وأطبع فمها بقبلة حارة . فيخفق قلبى لمجرد التفكير . وما كان الخوف من طردى خارج القصر ، مجللا بالخزى ، ملفعا بالعار ، هو الذى يصدنى عن إنفاذ فكرتى . فقد كان كبيراً على نفسى ، أن لا أجترىء ، ولا أقدم . وكم من مرة نهضت فى جوف الليل ، فهممت بأن أغشى غرفتها . بل كم كنت أفتح الباب فى رفق وحذر كما يصنع اللص ، فاهبط السلم ، ثم التمس الطريق إلى باب شارلوت ، مجازفا بان أضبط ، فأطرد ، دون أن أبلغ غرضا ، أو أنال مأرباً . ولكم هممت بفتح الباب ثم تراجعت ولم أجسر . وما كنت وجلا ولا هياباً ، وإنما كنت أتهيب طهر شارلوت وعفافها

وأقبل الربيع بعد طول تردد . وأصبحت أحب تلك الفتاة من كل قلبى . ولما كاشفتها بحبى كنت مخلصاً وفياً

نعم ، إنى لأذكر يوم صارحتها بحبى . كان ذلك فى الثانى عشر من مايو ،

والجو صحو ، فخرجنا نحن الأربعة ، الآنسة لارجكس ، ولوسيان ، وشارلوت ، وأنا ، قاصدين إلى قرية « سان ساترنان » . وما لبثت الآنسة لارجكس غير بعيد حتى تعبت من السير فركبت العربة . ولقد شهد سائقها علىّ فى التحقيق . ثم ما لبث لوسيان حتى لحق بالمربية . وكذلك كنت أسير وحدى مع شارلوت . ووضعت نصب عينيها أن تؤلف طاقة من الزهر ، فكنت أعينها . وأوغلنا بين أغصـــان الأشجار الوارفة الظلال ، وبتنا بعيدين عن العربة ومن اقلت . وأدركت شارلوت لأول وهلة العزلة التى أصبحنا فيها . فأنصتت لتسمع عدو الحصان فى الطريق ، ثم صاحت فى مرح الطفولة :

— « لقد ضللنا ، ولـكن لن يعز علينا أن نرجع أدراجنا . . . فهل لك أن تنتظر حتى أهيء طاقتى ؟ فليس من الخير أن نتلف تلك الأزهار الرائعة . . . »

ثم جلست على صخرة تغمرها الشمس بأشعتها ، ونثرت الأزهار فوق ثوبها ، وأخذت تنظمها زهرة فزهرة . وجلست إلى الجانب الآخر من الصخرة ، وشذى الأزهار ينعش نفسى . وما بدت لى تلك الأنسانة ، التى ملـكت علىّ قلبى ، شهرين كاملين ، كما بدت الساعة ، بارعة الحسن ، رائعة الجمال ، بوجهها الوضاح الذى اكسبه الهواء لوناوورديا ، ومحياها الذى تشرق فيـه ابتسامة ، وعينيها النجلاوين ، وقدها الرشيق . وخلعت قفازيها ، فتـكشفت يداها عن جمال يملأ العين روعة . وكذلك تمشى جمالها مع جمال

الطبيعة ، وربيع عمرها ، مع الربيع الغض . وكلما نظرت إليها ، اقتنعت بأن الفرصة سانحة لأن أفضى اليها بما احتبس فى صدرى طويلا . فلن تتاح لى فرصة مثلها . وخفق قلبى . ولسوء طالعها ، التفتت نحوى ، لتريني طاقتها ، فلمحت آثار العاصفة التى تضطرب بين جوانحى ، ترتسم على وجهى ، فاكفهر وجهها بعد أن كان مشرقا ، وارتسمت عليه دلائل الاضطراب ، بعد إذ كان هادئا . وان أنس لا أنس ، اننا لم نشر فى أحاديثنا إلى تلك القصة الملفقة . وما كنت أدرى أنها صدقت تلك الرواية المخترعة . ولكن لم تلبث أن قالت لى ونظراتها تشف عن الأسى :

— « لماذا تكدر صفو هذا اليوم الجميل باثارة الذكريات المحزنة ؟ لقد كان يبدو عليك انك صرت اكثر تعقلا . . . »

— فاجبتها : « كلا ! انك لا تعلمين ماذا يبعث الحزن فى نفسى . . . آه ليست ذكريات . . . انك تلمحين ، على ما أرى ، إلى أحزانى الماضية . . انك مخطئة . . ليس فى نفسى موضع لها ، كما أنه لا موضع لأوراق العام الماضى بين هذه الأغصان . . . »

وسمعتنى انطق بتلك العبارة ، وكأن غيرى الذى يتكلم . ورأيت أن شارلوت قد أدركت ما أرمى اليه رغم خلعى الثوب الشعرى على عبارتى رجاء أن يخفى ما ينطوى تحتها . فكيف أصبح المستحيل ممكنا مستطاعا ؟ وكيف اجترأت على ما لم أكن أجترىء عليه ؟ ثم تناولت يدها ، فاحسست برعدة فيها ، كأنما أصاب تلك البنية المسكينة هول وفزع . ووجدت فى

نفسها القوة لتنهض وتذهب ، فاصطكت ركبتاها ، فلم أجد كبير عناء فى حملها على الجلوس كرة أخرى . وهالنى أقدامى ، ففقدت صوابى ، وطفقت أعبر لها عن عواطفى ، وأترجم عن شعورى ، فى عبارات لا أذكرها اليوم إذ جاءت عفو الخاطر . فقد استحالت العواطف التى اضطربت بين جوانحى ، والشعور الذى جاش فى صدرى ، من يوم قدمت إلى القصر ، إلى عبادة لتلك الأنسانة المروعة المضطربة . نعم ، استحالت العواطف جميعا ، شرها وخيرها ، إلى عبادة لشارلوت ، حتى الحسد للكونت اندريه ، وحتى تأنيب الضمير لاستغلال فتاة بريئة . . . ! وكلما أمعنت فى الكلام رأيت وجهها يمتقع ، فيصبح فى لون الأزهار المتناثرة فوق ثوبها . واندفعت أزجى العبارات فى غير خوف ولا حذر ، حتى أرسلت الصيحة من أعماق قلبى : « فى حبك ! آه ! انى أحبك ! . . . » وشددت على يدها ، ودنوت منها اكثر من ذى قبل . فمالت كأنما فقدت القوة على التماسك ، فطوقتها بذراعى ونسيت فى فورة اضطرابى ، أن أطبع فمها بقبلة حارة . فارتاعت لتلك الحركة ، ونهضت ، ثم تخلصت . وقالت : « دعنى . . . دعنى . . . » ثم تراجعت ، ويداها مبسوطتان ، لتدفع عن نفسها حتى آوت إلى جذع الشجرة . فاسندت ظهرها اليه ، ومظاهر الاضطراب بادية عليها ، ثم انحدرت الدموع فوق خديها . ولئن دلت تلك العبرات على شىء فانما تدل على الحياء الجريح ، والثورة المضطرمة ، والفورة المتأججة ، فلم أبرح مكانى ، وتمتمت بتلك الكلمة : « مغفرة . . . »

ـ فاشارت يدها إلى قائلة « لا تنطق بكلمة » : ولبثنا على تلك الصورة وقتا لم أتبينه . ثم ما لبثنا أن سمعنا نداءاً يشق أجواز الفضاء . فقد أقلقتهم غيبتنا فصاح لوسيان الصغير الصيحة التى ألفنا أن تجمعنا . فارتعدت فرائص شارلوت ، واحتدم الدم فى وجهها . وألقت على نظرة رهيبة تشف عن العزة أكثر مما تشف عن الفزع . ثم نظرت إلى نفسها كأنما أفاقت من حلم مروع . ورأت يديها العاريتين ، وكانتا لا تزالان ترتعدان ، فلم تنبس بكلمة واحدة ، والتقطت قفازها وأزهارها ، وراحت تعدو أمامى ، كما تعدو الفريسة روعها الصياد . وسارت صوب الجهة التى كان ينبعث منها النداء . ولم تلبث أن صرنا اليها . وقالت لمربيتها درءاً لماعسى أن توجه اليها من سؤال قد يثيره مظهرها « انى لأشعر بشىء من التعب . فهل لك أن تفسحى لى مكانا بالعربة ؟ فلا بد لنا من العودة . . »

فاجابتها المربية : « ان حرارة الجو هى التى آذتك »

ـ وتساءل الغلام حين تبوأت شارلوت مكانها من العربة وجلس هو إلى الخلف : « ومسيو جرسلو . . ؟ »

ـ فأجبت « سأعود سيرا على قدمى »

ودرجت العربة مسرعة ، ولوسيان يلوح بيده حتى اختفت عن الأبصار . فألفيت نفسى فى الطريق وحدى . فاحسست الألم يشيع فى نفسى بعد ذاك المرح الذى كان يملأها أولا . فلقد أثرت المعركة ثم مالبثت أن خسرتها . ولسوف أطرد من القصر شر طرد . نعم ، لقد كان هذا الشعور هو الذى

أطار صوابى ، بدل أن يكون مزيجاً من الأسف والخجل والرغبة . ذلك هو الطريق الذى ساقتنى اليه فلسفتى . وذاك مصير الحصار الذى ضربته حول قلب تلك الفتاة ! وكأنى كنت أرسل الصيحة فى جوف الصحراء ، فلم تنحدر من فمها كلمة واحدة إجابة لصدى ذاك الافضاء الحار الملتهب . ووقفت فى مكانى جامداً لا أتحرك ، مجترئاً بالعبارات المسرحية أزجيها ازجاءاً . وكانت ايماءتها ، وفرارها بعيداً عنى ، ويداها المبسوطتان ، كان كل أولئك كافياً لأن يجعلنى أتحجر فى مكانى . وما من شك فى أن العاطفة التى كانت تنزع بى إليها فى تلك المرحلة ، قد تألفت عناصرها من الكبرياء والحساسية ، إذ انقلب شعور العبادة الذى جعلنى أتدفق بعبارات الهوى تدفقاً ، إلى شعور بالحنق ، إذ لم أطرحها أرضا ، فاغتصبها اغتصاباً ، لدى جذع الشجرة التى أسندت ظهرها اليه . على أنى وقد أصبحت على قيد خطوات منها لم أزد أن أسألها المغفرة . وتمثل لى وجه الكونت اندريه . وتجلى أمام ناظرى مظهر الازدراء الذى ينطبع على وجهه حين يقصون على سمعه ذاك الحادث . فلما صرت أمام القصر شعرت بذل كبريائى . وبدا لى أن أعود أدراجى إلى كليرمونت ، بدل أن تتلقانى شارلوت بالاحتقار ، ويفجأنى أبوها بالاهانات . . لكن لم يعد فى الوقت متسع . فقد تقدم المركيز نحوى مصحوبا بلوسيان الذى كان يدعونى . فجاءت صيحة الغلام ، واستقبال الأب ، دليلا على انى كنت واهما إذ اعتقدت دنو مصيرى

— وقال لى المركيز : « لقد خلفوك وحيداً . ولم يخطر ببالهم أن يبعثوا

اليك بالعربة ثانية ... وما إخالك إلا متعبا من السير ... وأكبر ظنى أنك أسرعت الخطى ... وأخشى أن تكون شارلوت قد أصابها برد ... فما لبثت أن آوت إلى فراشها ... أن شمس الربيع خداعة »

وإذن فالآنسة شارلوت لم تبح بشىء بعد ! ...

إنها تتألم الليلة . . وأكبر الظن أن ستفضى بكل شىء غدا . فلم يسعنى إلا أن أعد أوراقى ، وأتأهب للرحيل . ولقد كنت فى ذلك الحين ، أحرص عليها كل الحرص ، إيمانا بموهبتى كفيلسوف ! ثم أقبل الغد . ولم يحصل شىء . ورأيتنى مع شارلوت على المائدة حين تناول الغداء . وكانت ممتقعة الوجه كمن مسه ألم شديد . وشعرت أن صوتى يحدث لديها شيئا من الاضطراب . فقضيت أسبوعا كاملا وأنا أرقب الطرد فى كل يوم دون أن أفكر فى أن أغادر القصر طائعاً مختاراً . وما كانت تعوزنى الاعذار التى أتلمسها ، والأسباب التى أنتحلها . وإنما كان يقعد بى الفضول وحب الاستطلاع

وفى اليوم الثامن استدعانى المركيز فأيقنت أنى لامحالة هالك . وترقبت أن أرى وجهها متجهما ، وعبارات جارحة ، تنهال على رأسى انهيالا . فما راعنى إلا أن أراه وقد تهلل وجهه ، وأبرقت أساريره

— قال المركيز : « إن ابنتى ما زالت تتألم ... لا شىء من الخطورة . ولكن حالات عصبية غريبة ... وهى تود أن تستشير بعض الأطباء فى

باريس . . فانت تعلم أنها كانت مريضة من قبل فابرأها طبيب وضعت فيه كل الثقة . وسيكون من دواعى اغتباطى أن أستشيره فيما يختص بحالتى . فسأسافر معها بعد غد . وقد نستطيع القيام برحلة بسيطة للترويح عن نفسها . لذلك وددت أن أوصيك بلوسيان ، فى فترة غيابنا ، وأنى راض عنك ياعزيزى جرسلو . . . ولقد كتبت إلى « ليماسيه » بالأمس مظهراً ذاك الرضا . . . وإنى لسعيد بلقائك . . . »

وإنك لتحكم ، يا أستاذى العزيز ، بما كشفت لك عن خلق ، أن تلك التحية كانت خليقة أن تداعب كبريائى ، إذ جاءت شهادة ناطقة باجادتى لتمثيل دورى ، فوق أنها مسكنة ماثار بنفسى من مخاوف . ورحت أسائل نفسى : لماذا حبست شارلوت لسانها عن الكلام فى مكاشفتى بحبها ؟ ولم أعلل ذاك الصمت بانه فى صالحى ، بل ظننت أنها أمسكت عن الكلام ابقاء على كسب قوتى ، مسوقة بعامل الشفقة ، لا مدفوعة بشعور الرحمة الممزوجة بالحب ، كما وددت أن أجد تلك العاطفة فى نفسها . ولم يكد هذا التعليل يثور فى خاطرى حتى عز على احتماله . وقلت فى نفسى . « كلا ، ذلك مالا يكون . ولن أتقبل ذاك الاحسان الذى يوليه تسامح يجرح عزة نفسى . . . ومتى عادت الآنسة شارلوت لن تجدنى هنا . أنها تدلنى على ما كان ينبغى لى أن أصنع . وددت أن أثير اهتمامها ، فلم أثر حتى غضبها . . . فلنغادر فى نفسها ذكرى غير ذكرى ذاك الفضولى الذى يستمسك بمركزه ، رغم الاهانات التى تنصب فوق رأسه . . . »

ولقد مات أمل الاغراء فى صدرى ، ذاك الأمل الذى ظللت أداعبه طوال فصل الشتاء ، إلى حد أن كتبت اليها خطابا ، فى الليلة أعقبت حديثنا التمس فيه غفرانها . وصارحتها بأن كل رابطة بيننا باتت مستحيلة ، وأنها لن تضيق صدراً بوجودى لدى عودتها . فلما أقبل الغد ، تربصت حتى تدعوها والدتها ، فاستطيع أن أغشى حجرتها . فما أن ذهبت حتى سارعت إلى وضع الخطاب على مكتبها . فوجدت بين الكتب التى أعدت لتوضع فى الصناديق ، كتابا على غلافه هذه الكلمات : ١٢ مايو عام ١٨٨٦ . . . وذلك تاريخ مكاشفتى لها بحبى ! فتناولت الكتاب ثم فضضته . فالقيت به أزهاراً جافة . . . وإذن فقد احتفظت بتلك الأزهار . وحرصت عليها رغم ما أفضيت اليها به ، بل بسبب هذا الافضاء ، وآية ذلك ، هذا التاريخ المكتوب بيدها : ١٢ مايو عام ١٨٨٦ — وما أحسب أنى تأثرت يوما كما تأثرت حين رأيت ذاك الكتاب . فطغت موجة كبرياء غمرت قلبى . نعم ، أن شارلوت قد دفعتنى . ونعم ، أنها تعلقت باذيال الفرار . ولكنها كانت تحبنى . وبيدى الدليل على شعورها الذى ما كنت أجسر على أن أشرئب اليه بآمالى . فأعدت الكتاب إلى مكانه ، وسارعت إلى غرفتى ، خشية أن تفاجئنى ، ولم أدع خطابى ، بل بادرت إلى تمزيقه

والآن ، فلا ينبغى أن أرحل . بل يجمل بى أن أقيم حتى تعود . وفى هذه المرة سأقتحم الحصن المنيع . وسيعقد النصر بلوائى . أنها تحبنى . . .

الازمة الثانية

أجل ، لقد كانت تحبني . والتجربة التي صاغها كبريائي وفضولي ، قد توجت بالنجاح . فلما تجلت لي تلك الحقيقة ، وما كانت لترقى اليها الشكوك بعد هذا الدليل الذى لمسته بيدى ، هان علىّ رحيل الفتاة ، لا بل أصبح عذبا سائغا . فلا ريب أن رحيلها يحمل فى ثناياه معنى مغالبتها لشعورها ، وان ذاك الشعور متدفق عميق . ثم أن غيابها بضعة أسابيع كفيل بانقاذى من ورطتى . فماذا صنع ؟ وما هو الطريق الذى ينبغى أن أسلك ، والسياسة التى يجب أن أنتهج ، ليتم لى النجاح ؟

سيتسع أمامى مجال التفكير فى اثناء غيابها الذى لن يطول ، إذ أن أسرة جوسات لا تملك الآن مسكنا إلا فى « أوفرنى » فارجأت إلى المستقبل حبك أطراف خطة جديدة . واستسلمت لنشوة الظفر حين كنت أشهد رحيل شارلوت وأبيها . واستأذنت منهما وصعدت إلى غرفتى . وكانت مصافحة المركيز لى ودية حارة ، فلم تدع لدى مجالا للشك فى أن عروة ارتباطى بالاسرة لا انفصام لها . ولمحت تحت رداء فتور الفتاة المصطنع ، قلبا دائم الخفقان

وكنت أقيم بالطابق الثانى ، فى غرفة تشرف نافذتها على واجهة القصر . فوقفت خلف الستار ، بحيث أرى ولا أرى ، لأشهد ركوبها العربة . فبدا المركيز ثم بدت شارلوت . فما استطعت أن أتبين ملامحها تحت النقاب وأنا أشرف من عل ، ولم أدر ، حين ازاحت النقاب عن وجهها لتجفف دمعها

أكان مبعث انفعالها قبلات الوداع من أمها وأخيها ، أم يأسها من مغالبة شعور تجد أشد العناء فى مغالبته . على انى رأيتها وقد أدارت رأسها ، حين بلغت العربة سور القصر . وإذ كان أهلها قد تواروا ، فإلام كانت تنظر ، وتنعم النظر ان لم تكن إلى تلك الشرفة التى آويت اليها لأراها ؟ واحتجبت العربة ، ثم بدت على ضفاف البحيرة ، لتتوارى عن الأبصار كرة أخرى فى الطريق الذى يجتاز غابة « برادات » — ذاك الطريق الذى يثير ذكرى يخفق لها قلبها

وكذلك أشبعت شهوة كبريائى . ولبثت أداعب ذاك الشعور شهرا كاملا . وفى ذلك الدليل الناهض ، والآية الحية ، على أن علاقتى بتلك الفتاة كانت لا تزال روحية بحتة . وما كنت أصفى عقلا ، وأنضج رأيا ، وأخصب تفكيراً ، منى فى ذلك الحين . وإذ ذاك كتبت أبهى صفحاتى عن عمل الارادة أثناء النوم . وأدمجت فيها ، بيان عزمى ، طوال تلك الشهور . فلقد حرصت على أن أسجل حالتى النفسية ، فى كراسة أعددتها قبل أن آوى إلى مضجعى ، وحين أنهض من نومى . وألفيت نفسى حراً طليقاً ، ووجدت أمامى متسعاً من الوقت . فالآنسة لارجكس والأخت أناكليه تحرصان على ملازمة المركيزة . وإذا صفا الجو حرصت أن أخرج وتلميذى للرياضة . وغرست فى نفسه حب اصطياد الفراش بدعوى تلقينه مبادىء العلم . فكان فى كل حين يحمل عصاه وشبكته لاصطيادها ، فيوغل فى الصيد بعيداً عنى ، ويدعنى أوغل فى تفكيرى ، فكنت أنظر إلى أوراق الأشجار وهى

تتفتح للشمس ، فاذكر نواميس التنفس لدى النباتات ، وكيف كان من المستطاع تبديل حياتها ، بتبديل الضوء . فاذا استطعنا أن نعرف نواميس النفس البشرية أتيح لنا أن نوجه حياتها الوجهةالتى نريد . ولقد تكلل سعي بالنجاح فى خلق عاطفة بين جوانح فتاة تفصل بينى وبينها هوة عميقة مظلمة. فأية وسائل جديدة تسمح لى بأن أذكى نيران تلك العاطفة ؟ وذهلت عن صفاءالسماء ، وغفلت عن جمال الغابات ، وروعة البراكين ، وبهاء الربوع ، وما عدتأرى غير العبارات النفسية المصبوبة فى قوالب الحساب ، والصيغ الخلقية المطبوعة على غرار علم الجبر

وتنازعتنى حلول كثيرة أعددتها لليوم المرتقب حيث أصبح فى عزلة القصر ، وجهاً لوجه أمام الآنسة شارلوت . أيجدربى ، حين تعود ، إن اصطنع عدم المبالاة ، لأبلبل فكرها ، ثم أحملها على التسليم بعامل الدهشة والألم ؟ أم أضرم نيران الغيرة فى صدرها ، بأن ألقى فى روعها ، أن تلك الفتاة الروسية التى لا وجود لها إلا فى خيالى ، قدمت إلى كليرمونت ، وإنها ما برحت تكتب إلى ؟ أم أضيف حلقات جديدة إلى سلسلة مكاشفتى لها ، وأدرع بالأقدام ، دون تهيب ؟

لقد أدرت هذه الفروض فى ذهنى على التعاقب ، وقلبت فروضا أخرى. فكنت أقنع نفسى بأنى لست مأخوذاً بحبها ، وإن الفيلسوف يتسلط على العاشق ، وإن شخصيتى القوية احتفظت بسموها ، واستقلالها ، وصفائها . وكنت أنحى على نفسى باللائمة ، كلما بدا من جانبى وهن أو تخاذل لا يتمشى

وتلك التقديرات . فالحق أنى كنت أستسلم للأحلام كلما خلوت إلى نفسى ، ورأيتنى أمام صور شارلوت مزدانة بها الحوائط ، أو فوق الموائد ، أو فى غرفة « لوسيان » . وكانت صور فتوغرافية بكافة الأحجام ، تمثلها وهى فى السادسة ، والعاشرة ، والخامسة عشر ، فأتيح لى أن أتابع تاريخ جمالها ، من عهد الطفولة ، إلى يوم صارت فتاة رائعة الجمال ، وبدا لى أن ملامحها تتبدل من صورة لأخرى ، على أن نظرتها لم تتغير أبداً . نعم ، لقد ظلت نظرتها وهى طفلة ، كنظرتها وهى فتاة ، تفيض جداً وخطورة ، وحناناً وعطفاً ، وتتكشف عن الشعور والحساسية ، ولقد بسطت تلك النظرة سلطانها علىّ ، وكلما ذكرتها ثارت عواطفى . آه ! لماذا لم أرفع أمامها راية التسليم ؟ ولماذا حال كبريائى بينى وبين المتاع بها ؟ لكن ، لماذا كانت شارلوت إلى جانب أخيها الكونت اندريه فى معظم تلك الصور ؟ لقد كانت مراجل الحقد تغلى فى صدرى كلما رأيت ذاك الرجل . فلما شهدته إلى جانب أخته ، غاض الحنان من نفسى ، ولم يعد فىّ إلا إرادة تعمل . وأية إرادة ؟ . . . الآن قد اجترأت على أن أبوح بها لنفسى بعد أن أيقنت بوقوع ذاك القلب فى حبائلى . نعم لقد كنت أريد أن أصبح عاشقاً لشارلوت . . .
وما حملت نفسى على التفكير فى النتائج ، كما حملتها على اخماد ثورة الضمير لانتهاك حرمة بيت آوانى . فاستجمعت أفكارى ، وركزت فى نفسى نظرياتى عن عبادة الذات . وسأظفر من تلك التجربة بطائفة من الانفعالات والذكريات . وكذلك كانت النتيجة الأدبية لتلك المغامرة . فأما

النتيجة المادية فعودتى لأمى بعد انقضاء مدة التدريس . فاذا استيقظ الضمير فى نفسى ، وأهاب بى : « وشارلوت ؟ هل من حقك أن تتخذها مادة لتجربتك ؟ » تناولت كتاب « سبينوزا » فقرأت فيه النظرية القائلة بأن حقنا محدود بقدرتنا . ثم تناولت كتابك « نظرية العواطف » فدرست فيه عباراتك عن الصراع بين الجنسين فى ميدان الحب . وكنت أقول لنفسى « أن قانون العالم يقضى بان كل وجود غزو ينفذه الأقوياء ، ويحتفظون به على حساب الضعفاء . وذلك حق فى العالم الأدبى ، كما هو حق فى العالم الطبيعى . فهناك نفوس جارحة ، كما أن هناك ذئابا ونموراً وبزاة . » فبدت لى تلك العبارة قوية ، طريفة ، صادقة ، فطبقتها على نفسى ، وكررت القول « أنا نفس جارحة ، أنا نفس جارحة »

وما لبث كبريائى أن تبدد بحادث غير مرتقب . فقد كتب المركيز يخبر أنه سيعود إلى القصر وحده . وأما الآنسة شارلوت التى مابرحت تتألم ، فستظل فى باريس لدى خالتها . وكنا على المائدة حين حملت الينا المركيزة ذاك النبأ ، فانفجرت براكين غضبى على صورة كانت مثاراً لدهشتى ، وغادرت العشاء تحت ستار الدعوى بانى أصبت بدوار مفاجىء . ولقد كنت أوشك أن أصيح ، وأحطم الأدوات ، وأترجم بمظهر جنونى عن ذاك الضرب من السعار الذى أثار ثائرتى . فى وسط حمى الغرور التى تملكتنى منذ رحيل شارلوت ، قدرت كل احتمال ، إلا أن تكون تلك الفتاة من قوة الخلق بحيث لا ترجع إلى « ايدات »

لقد كانت وسيلتها إلى الفرار من شعورها هينة لينة ، ولكنها سامية ونهائية . وكذلك حبطت خطتى ، كما يحبط المدفع فى إصابة عدو تحصن بعيداً عن مرماه . وماعسى أن يكون سلطانى عليها ، إذا كانت بنجوة منى ؟ لا شىء ، لا شىء على الاطلاق ، ومالى أن ألحق بها . فبدا لى عجزى ، فأمضّ نفسى ، وآلم شعورى ، ومزق أعصابى ، فنبابى الفراش ، وتجافى جنبى عن المضجع ، ولم أذق الطعـــام ، فى الفترة التى مضت ، بين ورود الخطاب ، وقدوم المركيز نفسه

وابتغيت أن أتبين إذا كان ذاك العزم من شأنه أن يميت الأمل فى صدرى إلى غير بعث ، وأن لا رجاء فى عودة الفتاة خلال شهر يوليو أو فى غضون أغسطس وسبتمبر . فقد كان تعاقدى ينتهى فى منتصف اكتوبر . فكان قلبى يخفق ، حين كنت أنا ولوسيان فى محطة كليرمونت نرقب قدوم القطار من باريس لدى الساعة السادسة . فلما أعيانى القلق التمست أن يؤذن لى فى التقدم إلى المركيز . وأقبل القطار وأطل المسيو دى جوسات برأسه من النافذة ، وأنا أوشك أن أفتح عينيه على العاطفة التى تتأجج بين جوانحى إذ قلت :

— « والآنسة شارلوت ؟ »

— فصافحنى بحرارة وأجابنى : « شكراً ، شكراً ، يقول الطبيب إنها مصابة باضطراب عصبى شديد . . ويلوح لى أن طقس الجبال لا يلائمها . . لكن كيف السبيل وأنا لا أشعر بالصحة إلا فى ربوعها . . ! حقاً إن هذا

لمؤلم ، مؤلم جداً . . وأخيراً ، فسنجرب الاستشفاء بالماء البارد في باريس ، وربما جربناه بعد ذلك في « رجتز » . . . »

إنها لن تعود ! . . وإذا كنت قد أسفت على شيء ، يا أستاذي العزيز ، فإنما آسف اليوم على تلك الكراسة التي ألقيتها طعاماً للنيران ، والتي كانت وثيقة قيمة لعلم النفس . وكيف لا وقد كنت أضمنها آرائي يوماً فيوماً ، وأرسم فيها صورة صادقة لنفسيتي منذ صارحني المركيز ، في مساء يوم من شهر يونيه ، بأن ابنته لن تعود . وجرت الأمور على ذاك المنوال حتى كان شهر اكتوبر ، فجاء ظرف غير مرتقب ، فغير مجراها . ولو اطلعت على تلك الكراسة ، لراعك أن ترى فيها ، كما ترى في مجموعة خرائط للتشريح الخاق ، مصداقا لتحليلاتك الرائعة ، عن الحب ، والرغبة ، والأسف ، والغيرة ، والحقد . أجل ، لقد مضت أربعة شهور طوال ، تقلبت خلالها ، في تلك المراحل جميعاً . فكتبت إلى شارلوت إيماناً مني بأن غيابها ينم عن حبها لي ، وفي ذاك الكتاب سألتها المغفرة عن تهجمي عليها في غابة « برادات » . على أني جددت التهجم ، على صورة أبشع وأشنع ، إذ شفعت طلب المغفرة ، باماطة اللثام عن اليأس الذي ملك قلبي حين أصبحت بعيداً عنهـــا ، فجاء الكتاب مكاشفة جديدة بالحب ، أعظم جرأة من المكاشفة الأولى ، فلم أكد ألقيه في صندوق الخطابات ، حتى تملكني الخوف من جديد

ومضت ثلاثة أيام ، ثم أربعة ، ولم أتلق جواباً . على أني كنت أخشى أن يرد إلى كتابي دون أن يفض غلافه . وفي ذاك الحين ، كانت المركيزة

تعد عدتها تأهباً للرحيل لتلحق بابنتها . وكان لأختها بيت رحب فى باريس ، فاستطاعت أن تفسح فيه لتينك السيدتين مكاناً . ولشد ما اضطربت جوانحى كلما كتبت ذاك العنوان الجديد . فقد قدرت أن خالة الفتاة لا تراقب رسائلها كما تصنع أمها . فكان لا بدلى أن أرقب وجود تلك الأخيرة فى « إيدات » فأضاعف الأثر الذى أنتجه خطابى الأول لا محالة . فواليت إرسال الخطابات كل يوم إلى حين سفر المركيزة ، وكانت كلها مطبوعة على غرار الخطاب الأول ، أتهالك فيها وجدا عليها ، وأكاد أطير شوقا اليها ، وأتحرق حباً لها

وكانت رغبتى الملحة فى حمل شارلوت على العودة أدنى إلى الخيال وأبعد عن العقل . فلقد علمت أنها كلما جاءها كتاب منى تتبين خطى على غلافه ، ظلت ساعات تصارع الرغبة فى فضه . وأخيراً تفضه . فتطالع تلك الصفحات التى تقطر سماً . وإذا كانت تجهل الاكتشاف الذى أزاح لى الستار عن سرها ، وكشف أمامى القناع عن شعورها ، لم تجد بنفسها حاجة إلى الدفاع حيال الرأى الذى يمكن أن أكونه عنها . فما من شك فى أنها كانت تبرر موقفها ، وتتلمس لنفسها المعاذير عن قراءة كتبى ، بدعوى أنى أجهلها ، وأجهل حبها الوليد

ومست تلك الكتب شغاف قلبها فاحتفظت بها . والفاها المحققون ترابا فى موقد غرفتها . فلقد ألقتها طعاماً للنيران ليلة موتها

وقدرت أثر تلك الكتب التى كنت أسطرها فى جوف الليل ، مسوقا

بأنى أطلق مقذوفاتى الأخيرة . فكان موقفى شبيهاً بموقف من يطلق المقذوفات النارية وسط ضباب كثيف ، إذلم تبد إشارة تدلنى على أنى فى كل مرة صوبت إلى تلك التى جعلتها هدفاً لرمياتى ، كنت أصيبها فى صميم القلب

وفى بادىء الأمر ، ظننت عدم الوثوق فى صالحى . فلما غادرت المركيزة القصر لتلحق بابنتها ، استحالت الكتابة علىّ ، ووجدت فى صمت شارلوت الدليل الناهض ، لا على عدم حبها لى ، ولكن علىّ أنها تغالب ذاك الحب ، ولسوف تغلبه . فقلت لنفسى ، ينبغى لى أن أكف عن تلك المحاولات ، فما أنا ببالغها . ولقد انقضى كل شىء ، ورفعت صوتى بتلك العبارة ، إذ كنت وحيداً فى غرفتى ، أسمع كر العربية التى أقلت المركيزة . وصحبها المسيو دى جوسات ولوسيان حتى استقلت القطار . فقلت فى نفسى : « نعم ، لقد انقضى كل شىء ، وماذا يضيرنى ، ما دمت لا أحبها ؟ . . » فهدأت ثائرتى ، ولم أشعر إلا بشىء من الضيق الذى يشعر به المغيظ المحنق . فبادرت إلى الخروج ، لأزحزح الكابوس الجاثم فوق صدرى ، ويممت شطر المكان الذى صارحت فيه شارلوت بحبى ، وحملت معى كتاباً جديداً تلقيته ، ترجمة خطابات « داروين » لأقنع نفسى ، بأن عقلى بات حراً طليقاً . وكان الجو ملبداً بالسحب ، على أن الطقس حار ، وكأنما كانت تهب رياح السموم فتلفح تلك الأشجار النضرة . وكلما أمعنت فى السير ، عصفت تلك الرياح بأعصابى ، وأحببت أن أعزو اليها ما أعانى من ضيق وحرج ، وبعد جهد

اهتديت ، إلى حيث كنا نجلس ، شارلوت وأنا . واخترت أن أطالع كتابى .
فجلست وفتحت الكتاب . فما قرأت بضعة أسطر حتى ساورتنى الذكريات
وطغت على مشاعرى ، وكأنى أبصر بالفتاة على تلك الصخرة وهى تنسق
أزهارها . ثم أراها ناهضة ومستندة إلى جذع الشجرة ، ثم أشهدها مروعة
مذعورة ، تلوذ بأذيال الفرار فوق الأعشاب . فأحسست الألم يطغى على
قلبي رويداً رويداً ، فيحبس أنفاسى ، ويستدر دموعى . وهالنى أن أرى
تلك البنية قد شغفتنى حباً ، فلم يعصمنى من حبها ما أوتيت من قوة على البحوث
الفلسفية ، وقدرة على التحليلات النفسية — البنية التى لا يضمها هذا المكان ،
ولن تراه بعد الآن

فلما تجلت لى تلك العاطفة المنافية للخطة التى رسمتها لمغامرتى ، ثرت
عليها ، وعلى خيال الفتاة التى كانت مبعث ألمى . فما مضى يوم لم أرجع فيه
على نفسى باللائمة لذاك العار الذى أصابنى ، والخزى الذى لحقنى ، إذ
ترديت فى الهوة التى حفرتها ، واضطربت فى الشباك التى نصبتها . وما
ذكرت موقفى حتى فاض قلبي حقداً ومرارة على تلك النائية التى باتت
مصدر شقائى

وليس أدل على حقدى من ذاك الاغتباط الشائن الذى غمر قلبي حين
تلقى المركيز خطابا من باريس فلما قرأه اكفهر وجهه ، وقطب جبينه ،
وتنفس الصعداء قائلا : « أن شارلوت ليست بخير » فشعرت بعزاء
ناقص ، تعس ، ولكنه عزاء فى كل حال ، إذ استطعت أن أقول لنفسى ،

انى أنا الآخر ، قد جرحتها جرحا مسموما لا يلتئم إلا بعد حين . وخيل إلى أنى أثار لنفسى منها ، إذا ظلت تتألم ، وبرئت أنا من دائى . فاهبت بالفيلسوف الذى يتبدى فى ثيابى ، ليظفر بالعاشق الذى يضطرب بين جوانحى . وعدت إلى منطق القديم . فقلت : « هناك نواميس للنفس البشرية أعرفها جد المعرفة . على أنى لا أود أن أطبقها على شارلوت لأنها فرت منى . أفأعجز عن تطبيقها على نفسى ؟ » ثم أعملت الفكر فى هذا السؤال : « هل هناك دواء لداء الحب ؟ . . . » — فأجبت نفسى : « نعم ، هناك أدوية ، وسأجدها » فاعانتنى طبيعتى على التحليل الشبيه بالتحليل الحسابى على البرء من دائى ، وعمدت إلى تحليل المسألة إلى عناصرها كما يصنع علماء الهندسة . فتساءلت : « ما هو الحب ؟ » وأجبت نفسى بتعريفك : « الحب هو الضيق الناشىء عن التفكير فى الجنس » . والآن ، كيف السبيل إلى مغالبة ذاك التفكير الملازم ؟ لا سبيل إلى تلك المغالبة إلا بالتعب الجثمانى الذى يقف ، أو على الأقل ، ينقص من عمل الفكر . فاكرهت نفسى ، واكرهت تلميذى معى ، على المشى البعيد . فاذا أقبل اليومان اللذان لا يتلقى فيهما دروسا ، وهما الأحد والخميس ، سرت وحدى حين يتنفس الصبح ، بعد أن أدل على الزمان والمكان اللذين يلحقنى فيهما « لوسيان » بالعربة . وكنت أوصى بايقاظى حوالى الساعة الثانية . فابرح القصر قبل أن ينبثق الفجر . فاضرب فى الأرض على غير هدى ، واختار الطريق الوعر ، واتسلق الجبل الصعب المرتقى ، الشديد المنحدر . ولكم قامرت برأسى . وجازفت بحياتى . وعرّضت للتهشيم أعضائى ، وللتحطيم اشلائى .

وكنت أسير والليل مدبر . فاذا انبثق نور الفجر ، شعرت بزمهرير الصباح كوخز الأبر فى وجهى . ورأيت الكواكب تحتجب ، والشمس ترسل أشعتها على الأزهار والأشجار والأعشاب فتخلع عليها حلة وردية وهاجة . وكنت أرجو ، بذاك السير المضنى ، والصعود المنهك ، أن أوقظ فى نفسى روح أجدادى ، روح أولئك الذين كانوا يأوون إلى المغاور والكهوف . فما أنا إلا مؤمن بعصر ما قبل التاريخ . وما أنا إلا مصدق أن الوحش الضارى يكمن تحت أثواب الانسان المتمدين . وهل انحدرت إلا كما انحدر غيرى من تلك الوحوش الضوارى . فلما ثارت تلك الخواطر فى نفسى ، بلغت حد الهذيان ، فلم يكن السلام الذى أتطلبه ، ولا السرور الذى أنشده ، بل كانت ذكرى علاقتى بشارلوت . ولقد كنت أذكرها كلما اجتزت طريقا اجتزناه معاً ، أو شهدت صفحة ماء البحيرة من قمة الجبل ، أو لمحت شرفات القصر ، أو رأيت أوراق الأشجار ، أو قرأت اسم قرية كتب على لوحة قرأتها شارلوت من قبل . نعم ، كان كل أولئك يثير ذكراها فى نفسى ، ويحزن قلبى لا أراها إلى جانبى . وكأنى كنت أسمع صوتها العذب وهى تقول لى : « أنظر . . . » كما كانت تقول ونحن معاً فى ربوع الجبال ، تحت ذاك الأفق ، وقد غطت الثلوج الأرض — ولكن زهرة جمالها الحية كانت تتفتح أكمامها — والآن والأرض تكسوها الخضرة ، عز على أن أرى فوقها الزهرة الحية . فاحسست الوجد لفراقها . وبخاصة أن « لوسيان » كان غائباً وقد الف أن يحدثنى عنها فى كل حين . كان يحبها ، ويعجب بها ، ويدلنى على أنها خليقة بالحب ، جديرة بالأعجاب . وقضيت الليالى مسهدا

أبكى وأنتحب ، وأهتف باسمها هتافا عالياً كأنما أصابنى ضرب من الجنون

— فلما لم أجد الدواء فى انضاء الجسد قلت لنفسى : « أن الفكر هو مبعث آلامى . فلنهاجم الفكر بالفكر . . » وكان عهداً ثانياً حاولت خلاله أن أغير اتجاهى العقلى . فاقبلت على الدراسة التى لا تمت بصلة إلى المسائل النسائية . وفى أقل من خمسة عشر يوما ، راجعت ، والقلم فى يمينى ، مائتى صفحة من كتاب « علم وظائف الأعضاء » لبونيس ، وهو الكتاب الذى حملته فى صندوقى ، وكانت أوعر الصفحات مسلكا ، وأعسرها فهما ، وأشدها جفافا ، إذ كانت خاصة بكيمياء الأجسام الحية . وبذلت جهوداً جبارة فى سبيل أن أفهم وألخص ، تلك التحليلات ، التى تتطلب المعمل ، فاخمدت شعلة ذكائى ، واطفأت جذوة تفكيرى ، وبت كالأبله ، وما استطعت أن أقاوم الفكرة الثابتة . فأيقنت أنى ضللت الطريق مرة أخرى . أفلم تكن الطريقة المثلى هى التى كان ينادى بها « جوته » : تسليط الفكر على الألم الذى يراد الخلاص منه ؟ فهذا العقل الجبار ، الذى عرف كيف يعيش ، قد وضع موضع التنفيذ النظرية التى أوضحها « سبينوزا » فى كتابه الخامس ، والتى تنادى بان نستخلص من حوادث حياتنا الشخصية القانون الذى يصل بينها وبين الحياة العظمى للكون . ولقد نصحنا المسيو « تين » فى الصفحات البليغة التى كتبها عن «بيرون» بان « نفهم أنفسنا » رجاء أن « ينتج ضوء العقل هدوء القلب » . وماذا تقول أنت يا أستاذى العزيز فى مقدمة كتابك « نظرية العواطف » ؟ ألست القائل : « لاسبيل

إلى تحرير النفس إلا باعتبار مصيرنا الشخصي مرتبطا بنواميس الطبيعة »
وهل أكتب هذه المذكرة إلا فى ضوء تلك المبادىء ؟ وهل تجدى هذه المبادىء علىّ اليوم ، وهى لم تجد علىّ بالأمس

لقد حاولت فى ذلك العهد أن ألخص تاريخ حبي لشارلوت . فافترضت شاباً يستشير عالماً من فطاحل علماء النفس . فانظر كيف تحقق المصادفات المحضة أحلامنا المتلاشية ! والعالم يشخص للشاب الداء ، ويصف له الدواء . وكتبت تلك القطعة خلال شهر أغسطس تحت تأثير جو حار . وكرست لكتابتها حوالى خمس عشرة جلسة ، تبدأ فى الساعة العاشرة مساء ، وتنتهى لدى الساعة الأولى صباحا ، والنوافذ مفتوحة ، والفراش يتهالك على مصباحى . وبدأ القمر يرسل أشعته الفضية على صفحة الماء فى البحيرة . فالقيت القلم من يدى وأخذت أتأمل جمال الطبيعة . وشعرت بأن السعادة لا تتم لى ، الا إذا كانت شارلوت معى فى تلك الغرفة ، جالسة على هذا المقعد ، أو نائمة فى ذاك الفراش ، يصافح جسمها جسمى ، وتعانق روحها روحى ، ويلاقى شبابها شبابى

فلما ضاق صدرى ، التمست من المركيز أن يمنحنى إجازة فمنحنى ثمانية أيام قضيتها فى كليرمونت . وما لبثت أن تبرمت بالحياة فيها ، وتاقت نفسى إلى العودة للقصر . فهناك يتاح لى أن أعيش بين ذكرياتى . وما إن قدمت حتى عاجلنى المركيز بنبأ أنقض على انقضاض الصاعقة

فلم يكد يرانى حتى قال لى : « نبأ سار . أن صحة شارلوت قد تحسنت .

ونبأ آخر سار . . . أنها ستتزوج . . . نعم ، لقد ارتضت أن تكون زوجة لمسيو دى بلان الذى أبت أن تتزوج منه قبلا ، وهى الآن راضية عنه كل الرضا . . . » ومضى فى كلامه ، معرجا على نفسه ، كعادته المألوفة فقال :
« أجل ، هذا نبأ سار ، فانت ترى إنى أصبحت فى آخر مرحلة من مراحل العمر . . . »

ولقد كان فى وسعه أن يفيض فى الكلام عن آلامه الموهومة ، وأمراضه المزعومة ، وأن يسهب ماشاء أن يسهب ، فى التحدث عن معدته ، ونقرسه وامعائه ، وكليتيه ، ورأسه ، فما كنت لأصغى اليه إلا كما يصغى المحكوم عليه إلى سجانه . وتمثلت الحقيقة ، فى تلك اللحظة ، أمام عينى ، هائلة رهيبة . وأنت الذى كتبت الصفحات الرائعة عن الغيرة والأثر الدامى الذى تتركه فى خيال العاشق حين يمر بخاطره أن خصمه قد داعب من يتعشقها ، تستطيع أن تقدر أى سم أفرغه ذاك النبأ فى جرح قلبى . فلقد مضى شهر مايو ، وانقضى من بعده يونيه ، وكر فى أثرهما يوليو وأغسطس وسبتمبر — مضى حوالى خمسة أشهر منذ سافرت شارلوت ، وهذا الجرح ، بدل أن يلتئم ، أخذ يتسع شيئا فشيئا ، ويتسمم رويداً رويداً ، حتى مسه النبأ الأخير ، فاجهز علىّ . وما عدت أستطيع أن أقول لنفسى ، أنها تشاطرنى آلامى ، فعز علىّ ، حتى ذاك العزاء القاسى . أفلا يدلنى هذا الزواج على أنها قد برئت من حبها لى ، على حين أنى مازلت أتهالك وجداً عليها ؟ وثارت ثائرتى حين ذكرت أن ذاك الحب الوليد الناشىء ، قد انتزع منى انتزاعاً ، فى

الساعة التى كنت أستطيع أن أتعهده حتى ينمو ويترعرع ، فأجنى ثماره الناضجة

وانحيت على نفسى باللائمة إذ لم أهجر كل شىء بعد رحيل شارلوت ، ولم أتبعها رغم المال الضئيل الذى أملكه . لكن سبق السيف العذل . ولقد أراها فى باريس ، إذ كنت أعلم أن المسيو دى بلان يمضى إجازته فيها ، تستقبل خطيبها فى شبه خلوة ترتفع فيها الكلفة ، تحت سمع المركيزة وبصرها . وأن ابتسامات شارلوت التى تشع نوراً ، ونظراتها التى تفيض عطفا وحناناً ، ووجهها الذى يتدفق حياء وعفافاً ، وايماءاته الحلوة ، وصوتها العذب — كل أولئك قد بات ملكا لذاك الرجل . وهل من شك فى أنها تحبه ، بعد أن رضيت الزواج منه ؟ وبدا لى المسيو دى بلان فى صورة الكونت أندريه . وشعرت بأثر هذا الأخير فى مسألة الزواج . فتأججت نيران الحقد عليه ، وعلى خطيب أخته و وشملت هذين الضابطين النبيلين ، بكراهيتى وبغضى

وما برحت أحمل ذاك الغضب الصبيانى الفارغ فاختلف الى الغابة . وكانت الطيور تتجمع تأهباً للرحيل . فقد بدأ عهد الصيد . وباتت تروعها طلقات الصيادين . فتطير كما طار العصفور الذى شغلت باصطياده زمانا . ورأيت الأعناب قطوفها دانية ، فذكرت أنى حرمت الثمرة ساعة نضوجها . وكذلك كنت أنقب فى ثنايا الطبيعة عن رموز لحبى . وكأن آلامى قد أبرأتنى من فلسفتى إلى حين فما صرت نهباً مقسما للذكريات تارة واليأس طوراً ، كما

كنت فى تلك الأيام الأخيرة لانقضاء عهد التدريس . وفى الواقع ، فقد أعلن المركيز عزمه على تقريب يوم رحيله وقال لى ، وقد نسى مرضه ، واستخفه الطرب :

— « إنى أحب صهرى الجديد حباً يقرب من العبادة . . . وكنت أود أن تعرفه . . . أنه وفى مخلص ، شجاع ، طيب القلب ، عزيز النفس ، تجرى فى عروقه دماء النبل والشرف . وأخيراً فهل تفهم أحوال النساء ؟ هاك واحدة منهن ليست أقلهن عقلا ، وأضعفهن إدراكا . تقدم إليها من عامين ، فقالت ، كلا . فطار صواب ابنى ، ولم يعد الينا إلا وهو بين الحياة والموت . ثم بعد الرفض القبول ، وبعد كلا ، نعم . . . ولعلك تعلم أنى ظننت دائما أن بعض الحب هو منشأ مرضها العصبى ... وكنت أقول لنفسى : أنها تحب شخصا . . . ولقد كان هو . وما عسى أن يحصل لو أنه رغب عن زواجها ؟ . . . »

هذا ماوعته الذاكرة من محاضرة المركيز . على أنه يوضح لك كيف أدمت الحادثات قلبى . كلا لم يكن المسيو دى بلان هو الذى أحبته شارلوت . على أنها أحبت . مافى ذلك شك ولا ريب . ولقد ضرب الدهر بيننا بضرباته ، فافترق مصيرها عن مصيرى ، وإلى الأبد !

وسيحيا البارون دى بلان حياة النعيم والخيلاء فى باريس ، فتتسع مسافة الخلف بين نعيمه وشقائى . فما كنت أجهل حياتى المقبلة . فقد تمثلت لى حياتى فى الغرفة الصغيرة بشارع بيار . وتراءت أمامى الطرق الثلاثة

المفضية إلى الجامعة . وكأنى كنت أجتاز دار المجمع العلمى ، فأبلغ قاعة المحاضرات ، فأستمع إلى الأساتذة وهم يناقشون رسائل الطامحين لنيل الاجازات العلمية والأدبية . وأظل فى الجامعة ساعة ونصف الساعة ثم انقلب إلى بيتى ، حاملا حقيبتى على ذراعى . وأبق على تلك الحال عاماً كاملا ، إذ لم أكن قد أخذت الأهبة لتأدية الامتحان لنيل أجازة الآداب . وكنت أتمثل أبوى أميل الصغير يطلان من النافذة ، والمسيو لمياسيه يطالع الصحف فى جانب القهوة ، والناس يغدون ويروحون ، والسيارات العامة تنساب فى الطرقات . نعم ، لقد انحدرت ، يا أستاذى العزيز ، إلى مستوى تلك العقول التى تتشبث بمظهر الحياة الخارجى ، فلا تبلغ روحها ، ولا تنفذ إلى صميمها

وفقدت إيمانى القديم بسمو العلم وتفوقه ، حيث تكفى غرفة صغيرة لا تجاوز مساحتها ثلاثة أمتار مربعة ، يشرف منها سبينوزا أو أدريان سكست على العالم ، فيتفهمه ثم يتملكه . آه ! لقد كنت وضيعاً فى فترة الطاعية العاجزة ، والحب المقهور ! ولكم تسخطت ، على تلك العلوم التجريدية ، التى سأستأنف دراستها . ولكم وددت اليوم أن يكون ذلك مصيرى ، وأن أكون الطالب الفقير المنتسب إلى جامعة الآداب فى كليرمونت ، المقيم لدى والد أميل ، تلميذ لمياسيه ، عابر الطرقات الحالكة الظلام وهو عابس متجهم ، — على أن أكون بريئاً ! بريئاً ! وأن لا أكون ذاك الذى أجتاز ما اجتزت ، وما ينبغى أن أفضى به

الأزمة الثالثة

شعر لوسيان بألم ، فى غضون شهر سبتمبر ، عزاه الطبيب فى بادىء الأمر إلى مجرد اصابته بالبرد . وما مضى يومان حتى تضاعفت أعراض المرض . فاستقدموا طبيبين من كليرمونت على عجل قالا أنه مصاب بحمى لا تخشى عواقبها . ولو لم أكن مأخوذاً بتلك الفكرة الثابتة ، التى جعلتنى فى ذلك العهد كالمصاب بدخل فى عقله ، لملأت كراستى بالملحوظات . فما كان على إلا أن أتابع تطورات عقل المركيز ، والصراع الناشب فى قلبه ، بين مرضه وحبه الأبوى . فتارة كنت أراه ، رغم آراء الأطباء المطمئنة ، قلقا على ولده ، يسهر عليه طوال الليل . وطورا كان يفزع من سريان العدوى اليه ، فيلزم الفراش ، ويشكو آلاما وهمية ، مترقبا قدوم الطبيب . ولطالما حسب أن أعراض المرض خطيرة ، حتى ليطالب أن يعوده الطبيب أولا . ثم يتولاه الخجل من هذا الذعر المستولى عليه . ويتجلى فيه شرف المحتد . فينهض من فراشه ، ويصب اللعنات على الضعف الذى يجره السن فى ذيوله ، ثم يسارع إلى وسادة ابنه . وكان أكبر همه أن يخفى على المركيزة ، كما يخفى على شارلوت والكونت اندريه ، مرض الغلام . على انه ، بعد أسبوعين قضاهما موزعا بين الغيرة والفزع ، خمدت همته ، ونفد نشاطه ، فشعر بالحاجة إلى وجود امرأته إلى جانبه لتشد ازره . وبلغ من اضطراب فكره أن عمد إلى أخذ مشورتى

ـ وختم قوله بتوجيه ذاك السؤال إلى : « ألا ترى أن هـــذا هو واجبي ؟ . . . »

إن هناك نفوساً طبعت على الكذب ، يا أستاذى العزيز ، وبرعت فى تبرير أقبح الأعمال بأشرف البواعث ، ولو كنت فى عدادها ، لعزوت لنفسى الفضل فى الاصرار على عدم دعوة المركيز لامرأته . حقاً ، لقد كنت أعلم مرمى جوابى ، وأقدر مبلغ القرار الذى سيتخذه المسيو دى جوسات . كنت أعلم أنه إذا أخطر المركيزة فستقدم باول قطار ، وكنت أعرف شارلوت حتى أصبحت على ثقة بانها قادمة معها لا محالة . وإذ ذاك أراها . فأوقظ الحب الناشىء فى قلبها ، وقد لمست دليله بيدى

ولقد كنت أستطيع أن أعد نصيحتى إلى المركيز بان يدع مدام دى جوسات هانئة فى باريس ، إخلاصاً من جانبى . نعم ، لقد كان لى مظهر ذاك الأخلاص ، ولماذا ؟ لأنى إذا لم أكن مقتنعاً بأن لكل سبب مسبباً ، وأن كل إخلاص تشوبه الأنانية ، لجاهرت بأن من أبشع الأمور أن أستغل أنبل شعور فى سبيل عاطفة مجرمة ، وأسخر لأهوائى شعور أخت حيال أخيها . واليك الحقيقة المجردة

لقد كنت على يقين ، حين حاولت أن أصرف المركيز عن فكرته ، أن كل مجهود فى سبيل الاستيلاء على قلب شارلوت ، ذاهب فى الهواء ، وكنت أرقب فى ثنايا تلك العودة إذلالا محققاً لكبريائى ، ولشد ما ضعضعت قواى

تلك الحرب النفسية التى ظلت مشبوبة النيران طوال تلك الشهور ، حتى أخلقت جدتى ، وأطفأت شعلة ذكائى ، فلم أعد قادراً على تدبير خطط جديدة ، وما كان لى فضل ما فى أن أصور للمركيز المضار ، بل المخاطر التى يمكن أن تنجم عن إقامة هاتين السيدتين بالقصر ، على كثب من مريض قد تسرى عدوى مرضه اليهما

— فأجابنى : « وأنا ؟ أو لست أعرض نفسى فى كل حين ؟ ولكنك على حق فيما يختص بشارلوت ، وسأكتب إنى لا أود حضورها ... »

— ومضى يومان ، ثم تلقى المركيز برقية فقال لى : « آه ! يا جرسلو ، ذلك ما صنعتا بى : اقرأ ... » وقدم لى البرقية المؤذنة بقدوم الآنسة شارلوت مع أمها ، وقال بصوت متهدج : « من الطبيعى أنها آثرت الحضور دون أن تفكر فى أنى لست بحاجة إلى تلكم الانفعالات »

وكان المركيز يخاطبنى على تلك الصورة لدى الساعة الثانية بعد الظهر . وكنت أعلم أن القطار القادم من باريس يقوم فى الساعة التاسعة مساءاً ويصل إلى كليرمونت حوالى الساعة الخامسة صباحاً . فذاك هو القطار الذى أخذته حين عودتى من الرحلة التى تعرفت اليك فيها . وقدرت أن مدام دى جوسات والآنسة شارلوت تستقلان العربة ، فتبلغان القصر قبل الساعة العاشرة . فامضيت ليلة ، ليلاء إذ تجردت من سند الفلسفة . وأمسيت مخلوقا فاقد الهمة ، مهزول الارادة ، ضحية كل صدمة ، وفريسة كل هزة

عصبية . على أن حسن التقدير هدانى إلى حل موفق سعيد . فلقد أسلفت لك أن أجل تعاقدى ينتهى فى ١٥ أكتوبر . وكنا فى الخامس من ذاك الشهر . ودخل الغلام فى دور النقه . وأضحت أمه وأخته إلى جانبه، وبات فى وسعى أن أنتحل أى عذر لأرجع إلى أهلى دون أن أشعر بشىء من وخز الضمير . أجل ، لقدبات ذلك فى وسعى ، لا بل من واجبى — ضناً بكرامتى وإيثاراً لراحتى . ومضت ليلة لم أذق فيها طعم النوم . فلما أقبل الصباح صحت عزيمتى على الرحيل . ولمحت للمركيز بعزمى ، فلم يدعنى أتم كلامى، إذ تملكه الاضطراب لقدوم ابنته :

— وقال لى : « حسن . فيما بعد ، فيما بعد . أما الآن فليس فى ذهنى متسع للتفكير فى شىء . . ياللضيق ! . . لقد أدركتنى الشيخوخة مسرعة . . ثم أتلقى الضربات تباعا . . »

ومن يدرى ، فلعل مصيرى كان معلقاً فى ميزان القدر حين أبى المركيز أن يصغى إلىّ . ولو أنى خاطبته فى تلك اللحظة ، فضربنا موعداً لرحيلى ، لرأيتنى مكرهاً عليه . على حين أن مجرد حضور شارلوت قد استبدل بالرحيل البقاء ، كمصباح حمل إلى غرفة مظلمة ، فأبدل بالظلمات النور فى الحال . وأؤكد لك إنى كنت على ثقة من أنها أصبحت لا تلق إلىّ بالا ، على حين أمسيت أجتاز أزمة نفسية مبعثها الكبرياء الجريح ، والشهوة الجامحة ، لا الحب الصادق

وما كدت أراها تهبط من العربة ، حتى تجلى لى كيف يثير حضورى اضطرابها ، ويعصف حضورها برشـــدى . وتبينت أمرين : فاما أولهما فاستحالة مغادرتى القصر مابقيت فيه . وأما ثانيهما فمعاناتها كما عانيت بل أشد. وإذن فلم يخطىء تقديرى حين ألفيت الأزهار فى المظروف غداة رحيلها. فقد كان فى وسعها أن تفر من وجهى تحدوها شجاعة صادقة ، وأن لا تجيب على رسائلى ، بل لا تلقى عليها نظرة ، وإن تعقد خطوبتها لتقيم بيننا سداً منيعاً ، وتحفر هوة لا يمكن اجتيازها بحال ، وأن تؤمن بينها وبين نفسها ، أنها باتت لا تحبنى ، وأن تعود إلى القصر مليئة بذاك الايمان . على الرغم من كل أولئك ، كانت تحبنى

وما كنت بحاجة ، لأتعرف هذا الحب ، ان أعمد الى التحليل النفسى الذى طالما شغفت به ، وكثيراً ما خاننى . فلقد قرأت ذاك الحب مسطورا فى عينى تلك البنية كما تقرأ أنت تلك الكلمات التى أسطرها اليك . رأيتها فى ثياب السفر بيضاء مثل بياض الورق . وكان حقاً على أن أعلل ذاك الشحوب الذى عرا وجهها ، بالسأم الذى تملكها طوال الليلة التى قضتها فى عربة القطار ، والاضطراب الذى استولى عليها لمرض أخيها . فلما التقت نظرتها بنظرتى ، أحسست بالاضطراب فى عينها . وكان يمكن أن يعلل ذلك بحيائها الذى خدش . وباتت ضعيفة متخاذلة . فلماصارت إلى البهو ، خلعت معطفها ، فرأيت أن ثوبها ، الذى عرفته فى العام الماضى ، أصبح فضفاضا عليها . لكن ، ألم تكن مريضة ؟ . . . آه ! لقد شعرت ، أنا الذى طالما صدق

طريقة البحث الفلسفى ، وآمن بأساليب الاستنتاج العلمى ، والتدليل العقلى ، بالقوة القاهرة للغريزة ! لقد كانت تحبنى دائماً . بل لقد تضاعف حبها لى . وماذا يضيرنى إذا لم تكن قد صافحتنى حين التقينا لأول مرة ، أو خاطبتنى إذ رأتنى فى البهو ، أو التفتت وهى ترتقى وأمها السلم

لقد كانت تحبنى . فلما ثبت ذاك اليقين فى نفسى ، بعد فترة قلق واضطراب ، غمر شعور الفرح قلبى إلى حد الألم ، فبادرت بالصعود الى غرفتى . وماذا أنا صانع ؟ فاعتمدت على مكتبى ، وأسندت رأسى إلى يدى، وآليت الا أرحل ، والا ينقضى مابينى وبين شارلوت . وفى الحق فقد دنت الساعة التى يقال فيها أن الجهود التى بذلت من الجانبين ، والنضال الذى جرى وراء ستار ، والرغبات المكبوتة ، قد آذنت أن تسوقنا إلى أعماق الهاوية . أجل ، لقد كنت أشعر باقتراب مأساة فاجعة لا سبيل الى الفرار منها . فقد كانت شارلوت مكرهة على أن ترانى . ولقد التقينا لدى فراش أخيها ، يوم حضورها ، إذ كان على أن الازم المريض الصغير حين وافت الساعة الحادية عشرة . نعم ، لقد وجدتها تتحدث اليه ، فى الوقت الذى كانت المركيزة تسائل الأخت « انكليه » فوقفتا تهمسان إلى جانب النافذة . ولقد كتموا عن لوسيان قدوم السيدتين ، فما أن رآهما حتى ارتسمت على وجهه الشاحب ، وبدت فى إشاراته العصبية ، امارات الفرح المشوب بالتأثر والانفعال ، شأن الذين يجتازون دور الابلال من المرض . فحيانى بابتسامة مرحة انطبعت على فمه ، ثم أخذ بيدى وقال لأخته :

— « لو كنت تعلمين كم كان المسيو جرسلو يحنو على طوال هذه الأيام ! . . . »

فلم تحر جواباً . على انى رأيت يدها ، فوق الوسادة إلى جانب خد أخيها ، وهى ترتجف . وبذلت جهداً كى تنظر إلى نظرة لا تشف عن عواطفها . وكان لمظاهر التأثر والانفعال التى بدت على وجهى ، أثر فى نفسها . واستشعرت أنها إذا لم تحفل بتلك العبارة البريئة التى انحدرت من فم الغلام الصغير ، فقد تؤذى شعورى ، وتجرح عاطفتى . فقالت ، وهى لا توجه القول الى ، بصوتها العذب ، الذى تختلج فيه خفقات قلب مضطرب :

— « نعم ، إنى لأعلم ذلك . وانى لأشكره عليه . ونحن جميعاً نشكره . . . »

ولم تزد كلمة واحدة . وهذا الحديث البسيط جعل التأثر يأخذ منها كل مأخذ ، فلو أنى أخذت بيدها فى تلك اللحظة لخرت مغشياً عليها . فتمتمت بجواب مبهم كقولى : « هذا طبيعى » أو بما يشابهه . وما استطعت أن أحتفظ برباطة جأشى . واستأنف لوسيان الحديث ، وهو لا يشعر ، بتبدل لهجة أخته ، ولا باضطرابى

— « أفلا يحضر اندريه ليرانى ؟ »

— فأجابته : « إنك تعلم أنه باق فى فرقته . »

— فقال الغلام : « ومكسيم ؟ »

وما كنت أجهل أن ذاك هو اسم خطيب الآنسة شارلوت . وما كادت تلك الكلمة تنحدر من فم المريض ، حتى فارقها شحوب وجهها ، وتدفق الدم فى جوانبه . ثم كانت فترة صمت فقال الغلام وقد عرته الدهشة :

— « نعم ، مكسيم ؟ أفلا يأتى هو الآخر ؟ . . . »

— فأجابت شارلوت : « أن مسيو دى بلان قد لحق بفرقته »

— وإذ نهضت بغتة فقد سألنى لوسيان : « أو تصعد الآن يامسيو جرسلو ؟ . . . »

— فاجبته : « سأعود . فقد أغفلت كتابا فوق مكتبى . . . » ثم خرجت تاركا شارلوت إلى جانب فراش أخيها شاحبة اللون ، مطرقة الرأس

آه ! يا أستاذى ، انى بحاجة لأن تصدقنى فيما سأفضى به اليك . وأرجو ألا تشك فى اخلاصى رغم تذبذب قلب استعصى فهمه حتى علىّ . وأؤكد انى ما كنت أصطنع الكذب فى ذلك الحين . صدقنى . فما كان فى نهوضى شىء من التمثيل المسرحى حين ذكر أمامى اسم الرجل الذى بات مالكا لشارلوت . وما فاضت دموعى تمثيلا حين اجتزت الباب ، ولا ذرفت عيناى تصنعا طوال الليلة التى قضيتها مسهد الجفن . لا يطمئن جنبى إلى مضجع ، ولا سالت عبراتى تكلفا إذ ملك اليأس قلبى حين تجلت أمام عينى تلك الحقيقة الهائلة الرهيبة وهى: أنها تحبنى وأحبها . ولكن لن تكون

لى ، ولن أكون لها . وما كان ألمى هزلا ، حين كنت أشعر بالألم لمرآها

إن وجهها المهزول ، وطيفها الناحل ، وجفونها الفياضة بالألم ، كل أولئك بات كفيلا باثارة الاضطراب فى نفسى . وأن شحوب لونها كان يحزن قلبى ، وضمور خصرها يثير غرامى ، وكانما كانت عيناها تقول : « لا تتكلم . . . انى أعلم انك تعس مثلى . . وأن من القسوة ، لا بل من تحجر القلب ، أن تلوم ، أو تشكو ، أو تكشف عن جرحك . » . قل أنى كنت حسن النية خلال تلك الأيام ، وإلا لما تركتها تمر دون أن أقدم ، وقد كانت الساعات الباقية لى معدودة . على انى لا أذكر عزما عقدته ، أو خطة أحكمت تدبيرها . وأن أذكر فلا أذكر إلا مشاعر مضطربة ، وآلاما ممضة ، وودت أن أضع حداً لها ، فآثرت الموت على الحياة ، وفكرت فى الانتحار . . .

فانت ترى انى كنت أحب حباً صادقا فى تلك اللحظات . فقد ذابت جهودى ، وسط لهيب تلك العاطفة ، كما يذوب الرصاص فى الموقد . وأصبحت اوثر الاستشهاد فى ذاك السبيل . وما كان خاطر الموت الذى خطر لى ، وتمخضت عنه أعماق نفسى ، ولا كان تهالكى على أن أصبح تحت أطباق الثرى جسداً هامداً ، إلا نتيجة محتومة لمرض الحب الذى أبدعت ، يا أستاذى العزيز ، فى دراسته أيما ابداع . وان أنس لا أنس اشارتك إلى أن غريزة التدمير تتمشى فى نفس الانسان جنبا إلى جنب مع غريزة الجنس . ولقد تجلى ذلك لناظرى من السأم الذى لا نهاية له ، السأم من إن

يشعر المرء دون أن يجد السبيل إلى التعبير عن شعوره . ولو شئت الدليل عليه ، لوجدته فى ذاك الألم الذى كان يشع من عينى شارلوت حين كانت تلتقى نظراتها بنظراتى

وما كنا على انفراد أبداً ، اللهم إلا فى قاعة الاستقبال ، بضع لحظات يسود خلالها صمت عميق . وكان يستحيل الكلام كما يستحيل على المصاب بالشلل أن يحرك قدميه . وما كان يكفى مجهود فوق طاقة البشر لأن يحل عقدة الصمت . وإذا فاض الشعور تعذر حمله إلى آخر . وإذ ذاك يشعر الانسان بانه سجين نفسه ، فيؤثر أن يفر من السجن ، ويلقى بنفسه فى هاوية الموت . وكذلك أحببت أن أطبع شارلوت بأثر لا يمحى ، وان أبرهن لها على حب لا يطغى عليه حنان زوجها المقبل ، ولا مظاهر البيئة التى ستعيش فيها . « إذا مت يأسا من لقائها الى الأبد ، فقد وجب أن تذكر ذاك المدرس البسيط ، ذاك الريفى الصغير الفقير ، الذى يضحى بنفسه فى سبيل غرامه ! . . . »

ويلوح لى أنى غرقت فى بحار تلك التأملات . وترانى أقول : « يلوح لى » فالحق انى لم استطع أن أفهم نفسى فى تلك الفترة ، وكيف السبيل إلى ذلك وقد اضطربت فى نيران حمى عنيفة ، وفنيت فى مأساة فاجعة . وما كدت أتبين ، فى بيداء الفكر ، ومجاهل الرأى ، هذا الذى أسميته « الايحاء الذاتى » . وكأنما أصبحت تحت سلطان التنويم المغناطيسى الذى اصطنعته بنفسى ، وأمسى مثلى مثل الذى يمشى وهو نائم ، فما أدرى كيف اعتزمت أن أجهز

على نفسى ، فى يوم وساعة محددة ، فقصدت إلى الصيدلى ، فابتعت زجاجة السم . وما كنت وأنا أعد العدة ، تحت سلطان ذاك العزم ، أرجو شيئا أو أحسب حساب شيء . فقد ثارت بين جوانحى قوة خارجة عن نطاق ضميرى . كلا . وكأنما انتزعت من نفسى شخصا يفكر وآخر يعمل . وستجد ملحوظة عن ذاك البحث فى ورقة مودعة فى كتاب «بريير دى بواسمونت» عن الانتحار — وكأنى فى حلم اليقظة حين كنت أتخذ الاهبة للانتحار . وانى لأعزو تلك الظواهر الغريبة إلى اضطراب عصبى يبلغ حد الجنون ، منشأه الضرر الناجم عن الفكرة الثابتة . وخطر لى ، فى صباح اليوم الذى اخترته لانفاذ عزمى ، أن أقوم بالتجربه الأخيرة ، لدى شارلوت . فجلست إلى مكتبى لأكتب اليها كلمة الوداع الأخير . وتراءت لى وهى تتلو ذاك الكتاب ، فتساءلت : « ترى ماذا تصنع ؟ » أمن المستطاع ألا تتأثر ، وهى تشهد عزمى على الانتحار ؟ افما تسارع كى تحول دونه ؟

نعم ، انها ستبادر بالحضور إلى غرفتى . وستجدنى جثة هامدة . . . . اللهم إلا إذا تريثت فى القضاء على نفسى ، حتى أرى نتيجة هذه التجربة الأخيرة . وكذلك انبعث الأمل فى الساعة الأخيرة فقلت : « لنجرب » . وصحت عزيمتى على أن أتجرع السم إذا لم تحضر إلىّ فى منتصف الليل

ولقد درست آثاره ، فعلمت أنه يقضى على من يتجرعه فى الحال ، وبذلك لا تطول فترة آلامى

ومن عجب أنى قضيت ذاك اليوم فى هدوء وسكون . ولقد أحسست

كأنى ألقيت عبئاً يثقل كاهلى ، وأزحت كابوسا يجثم فوق صدرى . ولم يساورنى القلق ، إلا فى الساعة العاشرة ، حين وضعت الخطاب ، على المائدة ، فى غرفة الفتاة

وفى منتصف الساعة الحادية عشرة شعرت بصعود المركيز ، والمركيزة ومعهما شارلوت . ولبثوا يتحدثون برهة ، ثم تبادلوا التحيات ، وذهب كل إلى غرفته . . . وأقبلت الساعة الحادية عشرة . . . فالحادية عشرة والربع . ولم يبد شىء . وظللت أنظر إلى ساعتى ، وهى موضوعة أمامى ، إلى جانب الخطابات الثلاثة التى أعددتها ، لمسيو دى جوسات ، ولامى ، ولك ، يا أستاذى العزيز . وكان قلبى يخفق حتى كاد ينشق صدرى . على أن ارادتى ظلت ثابتة لا تتزعزع

ولقد صارحت الآنسة شارلوت بانها لن ترانى فى الغد . وكنت موقنا بانى لن أتراجع عن عزمى إذا . . وما اجترأت على أن أفتش عن الأمل الذى ينطوى تحت كلمة «إذا» . ولبثت أرقب « ابرة الثوانى » فى سيرها . وأعد الوقت ، بطريقة آلية ، ولكن فى غاية الضبط والاتقان : « سارى ابرة الثوانى تدور مرات عدة ، قبل أن ينتصف الليل ، فاجهز على نفسى . . » ثم شعرت بوقع اقدام فوق السلم ، خفية مترفقة ، تنم عن انفعال شديد ، فقطعت علىّ سبيل حسابى . وظلت تلك الخطوات تدنو . فوقفت بباب غرفتى . ففتح الباب فجأة . فرأيت شارلوت أمامى

فنهضت من مكانى . ولبثنا وقوفا ، وجها لوجه . وكأنما أحست هول

ماصنعت ، فاكفهر وجهها ، وامتقع لونها ، وأبرقت عيناها . وتجلت فى سحنتها ، هزيمة الارادة ، أمام سلطان العاطفة . وأكبر الظن انها تهيأت للنوم ، ثم نهضت من نومها ، فقد كان شعرها مرسلا ، بدل أن يكون معقوصا خلف رأسها . وارتدت رداء الغرفة . ووضعت قدميها عاريتين فى حذائها ، وهى لا تدرى ، شأن من تملكه الاضطراب

وبديهى أنها ضاقت صبرا باحتمال الألم ، فوثبت من فراشها ، وسارعت الى غرفتى . وما خشيت أن أظن بها الظنون ، ولا احفلت بما يمكن أن أقوله لهـا . وقد آمنت بكتابى ، فبادرت بالقدوم ، وهى فريسة لأشد ألوان الاضطراب

وما لبثت ، بعد ذاك الصمت ، أن قالت لى ، فى صوت متهدج « آه ! حمدا لله وشكرا ، فلم أصل بعد فوات الوقت . . . لقد اعتقدت أنك ميت ! آه ! ياللهول ! . . لكن لقد انقضى كل شىء ، أليس كذلك ؟ قل أنك ستطيعنى ، قل أنك لن تقضى على حياتك . اقسم ، اقسم لى . . . »

وأخذت يدى بين يديها وكأنها تتوسل الىّ . وكانت اصابعها مثلجة . وبات غشيانها غرفتى ، على تلك الصورة موقفا حاسما فى تاريخ حبنا . لا بل آية حية على ذلك الحب . وفى تلك اللحظة بلغ منى التأثر كل مبلغ ، حتى لم أعد أدرك ما أصنع فلم أجبها ، ولكنى أذكر أنى أخذتها بين ذراعى وأنا أبكى ، وأن فمى التمس السبيل الى فمها ، وأنى وسط تلك الدموع قد طبعت ثغرها بقبلة حارة صادقة . وكانت

برهةذهول وسعادة : ثم ما لبثت أن انتزعت نفسها من بين ذراعى ؛ وكأنما راعها أن تأذن لى فى ضمها وتقبيلها ، فاصطبغ وجهها حياءاً وخجلا

— قالت . «تعسا لى ، يجب أن أذهب ! . . . دعنى أذهب ! . . . لاتدن منى . . . »

— فاجبتها : « أنت ترين أنى ميت لا محـــالة ، اذ كنت لاتحبيننى ، وستصبحين زوجة لغيرى ، وكل شىء يفرق بيننا ، وإلى الأبد . »

وتناولت الزجاجة من فوق المائدة وأريتها اياها على ضوء المصباح

— واستأنفت القول : « إن ربع ما بهذه الزجاجة علاج لآلامى . فاذا انقضت خمس دقائق ، فقد قضى الأمر . » . ثم قلت فى هوادة ورفق ، دون أن تبدو منى اشارة يمكن أن تحملها على أن تدافع عن نفسها . « اذهبى ، وشكرا لك على حضورك . فلا يكاد يمضى ربع ساعة حتى أكون قد وضعت حدا لآلامى ، اذ حرمت منك طوال تلك الشهور . . . هيا فاذهبى ، الوداع ، لاتسلبينى شجاعتى . . . »

وما لبثت أن رأت ذاك السائل الأسود فى ضوء المصباح ، حتى ارتعدت فرائصها . فمدت يدها الىّ ، فانتزعت الزجاجة قائلة : « لا ! لا ! . . . » ثم نظرت اليها ، وقرأت ما كتب على غلافها الأحمر ، فجزعت . وزاد وجهها اكفهرارا ، وقطبت حاجبيها . واختلجت شفتاها . وباتت عيناها تشفان عن القلق ؛ وقالت ، فى صوت متهدج ، وكأنما كانت هناك قوة قاهرة تنتزع منها الكلمات انتزاعا

— « وأنا الاخرى قد احتملت الآلام حتى اعيانى احتمالها . وغالبت الشعور فغلبنى . وناضلت حتى لم يبق الى النضال سبيل . . . كلا » ثم مضت فى كلامها ، وتقدمت نحوى ، وأخذت بذراعى « لن تموت وحدك ، لن تموت وحدك . . . سنموت معا . فبعد الذى صنعت ، لم يبق الا هذا . . . » وهمت برفع الزجاجة الى فمها . فانتزعتها منها . فقالت وهى تتبسم ابتسامة تشف عن الجنون : « اموت ، نعم ، أموت ، على كثب منك ، ومعك ... » ودنت منى ، ووضعت رأسها على كتفى إلى حد أنى أحسست بنعومة شعرها فوق خدى . « هكذا . . . آه ! انى احبك من عهد بعيد . . . والآن أستطيع أن افضى اليك بذاك الحب ، اذ قد جعلت حياتى ثمنا له . . . أتود أن تأخذنى معك ، فنذهب نحن الاثنان ، نحن الاثنان ؟ . . .

— فاجبتها : « نعم ، سنموت معا . واقسم لك على ذلك . لكن . ينبغى الا نموت فى الحال . . . آه ! دعى لى الوقت الذى اشعر فيه بانك تحبيننى ... » والتقى فمى بفمها ، وفى تلك المرة ، كانت تبادلنى القبلات . فضممتها الى صدرى . فاستسلمت ايما استسلام آه ! لتلك القبلات الحارة التى تفيض من الروح على الجسم ، فتكسب الحب معنى ساميا ، وتلاشى الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، فلا تدع مكانا الا إليه

لقد اسلمت تلك العذراء نفسها الىّ ، بكل ما فيها من صون وعفاف . وظلت تحدثنى حديث شعورها . فقالت إنها أحبت للنظره الأولى ، وهى لاتدرى . وآلمها حزنى ، وما أفضيت به إليها . وودت لو باتت صاحبة لى ، تروح عن نفسى . وأذهلتها مكاشفتى لها بالحب ، فأقسمت أن

تعمق الهوة بيننا ، حتى لا يمكن اجتيازها بحال. وحدثنى حديث صراعها حين كانت تتلقى رسائلى ، وكيف كانت تجهد ألا تتلوها ، فتذهب جهودها عبثا ، وكيف دفعها اليأس إلى الخطبة ، رجاء أن تقيم بيننا سدا منيعا . ثم عودتها ، وما أعقبها. وترجمت عن شعورها بعبارة من تلكم العبارات التى تنحدر من الروح كما تنحدر الدموع من العين فقالت: « لو أنى استطعت أن أمحو صحيفة تلك الآلام مالها طاوعتنى نفسى على ذلك ، إذ كنت بحاجة لأن أشعر بأنى عشت بك ولك ... »

وقالت : « دعنى أموت أولا ، كيلا أراك تتألم... » ثم طوقتنى بشعرها ، فتراءت لى كالشهيدة ، ولمحت ، فى وجهها ، مزيجا من الفرح والألم ، والحماس وتأنيب الضمير . وإذ التزمت جانب الصمت ، وهى مضمومة إلى صدرى ، فانية فىّ ، وفمها إلى فمى ، ونحن متعانقان ، كنا نسمع الرياح تهب حزينة فتصطفق بالنوافذ الموصدة . وكان القصر فى صمته كالقبر الذى يقودنا الحب اليه

تلك هى الحلقة الغريبة فى سلسلة المغامرة ، والمرحلة الحاسمة فى مراحل المأساة ، والتى سيقول الناس عنها إنها تدعو إلى الخجل ، وتبعث على الخزى . على أن تلك الكلمات ، فيما بينك وبينى ، يا أستاذى العزيز ، لاطائل تحتها ، ولا غناء فيها ، وساجد فى نفسى الشجاعة لأن أفضى إليك بكل ماجرى مذ تلك الساعة

قلت لك ، إنى كنت جادا غير هازل ، حين اعتزمت الانتحار ،

فابتعت مادة السم ، فكتبت إلى شارلوت أصارحها بعزمى . وما كنت أبغى من وراء ذلك غرضا ، أو أمثل شعورا مسرحيا . فلما ارتمت بين ذراعى ، وصاحت : « لنمت معا ؟ » أجبتها : « لنمت معا » يحدونى الاخلاص ، وحسن النية . ولقد بدا لى طبيعيا ، هينا لينا ، ان نقضى معا . على انك ، وقد أوضحت كيف تتبخر الأوهام ، بعد اشباع العاطفة ، لاتعدنى مسخا دميا ، إذا كاشفتك ، بأن أوهامى قد تبددت ، وافقت من نشوتى ، بعد أن أسلمت شارلوت نفسها إلىّ

بتنا ضجيعين ، يلفنا الحب من فرع إلى قدم . وظللت أنظر الى شارلوت ، فاذكر أن ذاك الجسم الذى ينبض بالحياة ، سيصبح بعد ساعات جثة هامدة . وتسلط الأرض على ذلك الثغر الذى لايزال يختلج تحت حرارة القبلات . وتطبق الى الأبد هاتان العينان اللتان تفيضان حبا وحنانا . وتقضى تلك الروح التى ملأها حبى ! ورحت أردد تلك الكلمات : « جثة هامدة ، جثة هامدة . . . » فتمثل لى شبح الموت الرهيب

وإذ كان الحب يبسط سلطانه علىّ ، بت استقبل الموت بساما . ولا افرق من ظلمة القبر . ولا افزع من المجهول . ولا أجزع من العدم . فلما خمدت جذوته . وفترت حرارته . تراءى لى هول الموت . فتراجعت . . . وظلت شارلوت تطبق عينيها . وكان شحوبها ونحولها ينبئانى بما احتملت . ثم اجهزعليها . أو اعاونها على أن تجهز على نفسها . ونقضى معا . . . حينذاك

ارتعت فارتعدت . وما أدرى اجزعت من أجلها ، أم فزعت من أجل نفسى ، أم مشى الخوف فى صدرى من أجلنا معا . وانما الذى ادريه انى أصبحت كمثل الذين يعالجون سكرات الموت ، فيلقون على الدنيا نظرة أخيرة ، ويذكرون ما نعموا به ، وما أشرأبت آمالهم اليه . وكذلك ذكرت الحياة التى ارتقبتها ، والآمال التى شيدت صروحها

وتمثلت لى فى خلوتك ، ياستاذى العزيز ، تطلق لفكرك العنان ، فاتسعت أمامى آفاق التفكير . وقلت كيف أضحى بمباحثى النفسية التى حرصت عليها زمانا ، ثم اغفلتها حينا . وفى سبيل من ابذل ذلك الرأس الذى طالما اعتززت به ، وهاته الشخصية التى كثيرا ما فاخرت بقوتها ؟ ولماذا اطوح بتلك الكنوز جميعا . . . افى سبيل الوعد الذى بذلته ، والعهد الذى قطعته ؟ . . . ولكن الوعد املته ثورة نفسية ، والعهد اوحى به هوى من اهواء النفس الجامحة . وانما كان للانتحار محل حين تولانى اليأس من حب شارلوت . فاما الآن ، فهى تحبنى واحبها ، وهى لى وأنا لها . ومن ذا يحول بيننا وبين الهرب ، اذا اقبل الغد ، بعد تلك الليلة التى نعمنا بها

نعم ، من ذا يأخذ علينا السبيل ، ونحن حران طليقان ، لا تعوزنا وثبة الشباب وحرارته ؟ وما لبثت أن ذكرت فرارى مع شارلوت حتى تراءى لى شبح الكونت اندريه . وأثارت تلك الذكرى فى نفسى شعور العزة . أجل لقد نظرت إلى شارلوت من جديد ، فامتلأت نفسى كبرياء . فالخصومة التى مبعثها الحسد بين أخيها وبينى قد توجت بالظفر . وظللت أنظر اليها ، وتلك

الخواطر تزدحم فى رأسى ، فأشعر بأنى أسترددت حريتى . وتدفقت الحياة فى جوانب نفسى طليقة حرة ، كما يتـــدفق ماء النهر أزيلت من طريقه الحواجز والسدود

وأخذت شارلوت سنة من النوم . وكنت أسمع أنفاسها تتردد .ثم هبت من نومها مذعورة :

— فقالت : « آه ! هل أنت هنا ، هل أنت هنا . لقد غبت عن صوابى ورأيت فى نومى . . آه ! يا له من حلم ! . . لقد رأيت أخى يتوثب عليك . . ياله من حلم فظيع ! . . »

وطبعت على فمى قبلة . وإذ ذاك دقت الساعة ، فاستمعت إلى دقاتها ، وأحصت لغاية الرابعة

— فقالت : « الساعة الرابعة ، لقد حان الوقت . الوداع ، يا حبيبى ، الوداع . . »

وعانقتنى من جديد ، وبدت على وجهها مظاهر الثبات ، ورباطة الجأش

— وقالت فى سكون : « هات السم »

وظللت جامداً لا أبدى حراكا ، ولا أحير جواباً

— فمضت تقول : « أتخشى علىّ . انى أعرف كيف أموت . . . ناولنى . . . »

فنهضت دون أن أجيب . وكانت جاثية على ركبتيها ، وقد ضمت يديها ، دون نظر إلىّ . أفكانت تصلى ؟ أكان ذاك هو الجهد الأخير الذى تبذله نفس غضة شابة لتنتزع حب الحياة من أعماقها ، وتستأصل جذور التعلق بالدنيا ، وهى خليقة أن تتأصل فى قلب فتاة بلغت عشرين ربيعا ؟

وليس أدل على ثبات جنانى ، ورباطة جأشى ، من هذا البيان الصغير فى مبناه ، العظيم الدلالة فى معناه ومغزاه : فقد أصلحت شأنى ، تأهبا للشادة التى كنت أرقب وقوعها . فقد صح عزمى على أن أحول دون هذا الانتحار المزدوج . فتناولت زجاجة السم بثبات، فأودعتها القمطر، وأغلقته بالمفتاح . ولم تلتفت شارلوت إلى تلك الحركة ، ولكن طال عليها الوقت ، فألحت وألحفت ، ونظرت إلى :

— فقالت : « إنى على تمام الأهبة »

ورأت يدى فارغتين ، فاربد وجهها ، وبدت عليه أمارات الألم ، وقالت بصوت تمازجه قسوة ، ولهجة تخالطها جفوة :

— « السم . إعطنى السم . . » ثم اضافت بصوت ضعيف ، وكأنما تجيب نفسها ، عن خاطر خطر لها : « كلا . ليس هذا بممكن . . . »

فجثوت على ركبتى ، وأخذت بيديها ، وصحت : « كلا ، كلا . إنك تقولين حقاً ، فليس هذا بممكن . . . فلا أستطيع أن أدعك تموتين أمامى ، وتقتلين نفسك فى سبيلى . . . إنى أتوسل اليك يا شارلوت أن لا تقدمى على ذاك

العمل المشئوم . . . إنى كنت مجنوناً حين ابتعت السم ، فقد اعتقدت أنك لا تحبيننى . . . فأردت أن أجهز على نفسى . . . آه ! وكان يحـــدونى الاخلاص فيما أعددت العدة له ! . . والآن وأنت تحبيننى ، وأنا أشهد ذاك الحب ، وقدأسلمت نفسكإلىّ ، فلا أستطيع ، فلا أريد .. لنحيا، ياعزيزتى، لنحيا ، وافقينى على أن نحيا . . وسنسافر معاً إن شئت ، ومن حقنـا أن نتزوج . فنحن حران طليقان . . وإذالم تشائى ، وإذا كان عراك ندم على ما وقع ، فلأكن أنا الضحية ، ولأكن وحدى الشهيد ، وأقسم لك أنى سأصير كأن لم أكن شيئاً مذكوراً ، ولن أكدر عليك صفو حياتك ، أو أثير غباراً فى جو راحتك ، أو أبعث غمامة فى سماء سعادتك . . فاما أن أعينك على أن تموتى ، على أن تقتلى نفسك ، أنت . . فلا تطلبى إلى ذلك ولا تنتظريه . . »

لست أدرى ما مضى من الوقت وأنا أخاطبها على تلك الصورة ، ولا أعلم ماذا قلت لها غير ذلك . ولبثت أرقب أن تبـــدو عليهـا مظاهر ضعف المرأة ، وأن تقول « نعم » بدل « لا » فتكذب العين دعوى الفم. فصمتت ، وهى تمعن فى النظر إلىّ ، وعيناها تبرقان وترعدان . وانتزعت يدها من بين يدى ، وعقدت ذراعيها فوق صدرها ، وقالت ، حين فرغت من توسلى اليها ، وقد كرهت أن ترانى ، واستنكرت أن تدنو منى :

— « وكذلك أنت لا تريد أن تحتفظ بكلمتك ؟ .. »

فتمتمت: «كلا، أنا لا أستطيع، أنا لا أستطيع... وما كنت أدرى ما أقول..»

— فألقت على نظرة احتقار، وقالت، وشفتاها تختلجان من الغضب: «آه! قل لى إذن أنك خائف!.. اعطنى السم. إنى أرد اليك قولك... سأموت وحدى.. ولكن كيف نصبت لى الفخ الذى أوقعتنى فيه على تلك الصورة... جبان! جبان! جبان!..»

ولست أدرى لماذا لم أثب تحت سلطان تلك الاهانة البالغة. وفيم كان إحجامى عن تناول زجاجة السم، وفيم كان قعودى عن رفعها إلى فمى، فأتجرع ما فيها، قائلا لها: «انظرى، أترينى جباناً..» كلما فكرت فى ذاك الموقف، أعيانى فهمه، وحرت فى تعليله، وبخاصة، كلما ذكرت، أن آيات الازدراء الساحق كانت مطبوعة على وجهها

وعندى أن التعليل الصادق لذاك الموقف هو أنى كنت فى تلك اللحظة خائفاً وجلا، أنا الذى أمشى الآن إلى الاعدام بخطى ثابتة، وألزم الصمت منذ ثلاثة أشهر، مقامراً برأسى، مغامراً بحياتى. ذلك بأنى اليوم أستند إلى فكرة، وأرتكز على إرادة، على حين أنى كنت أضطرب بين العواطف الثائرة، والمشاعر المهتاجة. فجثوت على ركبتى، كأنما كنت عاجزاً عن الوقوف على قدمى، ولوحت برأسى وقلت: «لا، لا» وفى تلك المرة كانت هى التى لم تجب. ورأيتها تصف شعرها، وتضع قدميها فى حذائها، وترتدى ثوبها الأبيض، ولبثت تدور بعينيها، بحثاً وراء زجاجة السم،

فلما لم ترها فوق المائدة ، سارت إلى الباب ، فتوارت ، دون أن تلتفت ، بعد أن رمتنى كرة أخرى بتلك الكلمة الهائلة الرهيبة :

— « جبان ! جبان ! . . »

ودرت بنظرى فى الغرفة ، فأيقنت إنى لم أكن حالماً . ثم ما لبثت أن تولانى الفزع . فماذا أصنع ، إذا انقلبت شارلوت إلى غرفتها حانقة ، تغلى مراجل غيظها ، غاضبة تنفجر براكين حنقها ، فقضت على حياتها ؟ ولما بت فريسة ذاك الألم ، اجترأت على أن أجتاز البهو ، فأرقى السلم ، حتى إذا بلغت غرفتها . تسمعت لأسمع حركة ، أو أنيناً ، أو إشارة تزيح الستار عن المأساة التى تجرى خلف الباب ، فأسارع إلى اقتحامه ، وأبادر لانقاذها . فلم أسمع شيئاً . وبدت الحركة فى الطابق الأول . إذ استيقظ الخدم . فرجعت إلى غرفتى وارتديت ثيابى . وما وافت الساعة السادسة ، حتى هبطت إلى الحديقة تحت نافذة الفتاة ، فقد أشفقت أن تكون قذفت بنفسها من النافذة ، فهوت إلى الأرض ، مهشمة الأعضاء ، محطمة الاشلاء . فرأيت نوافذها مغلقة ، وأبصرت الورود فى أرض الحديقة قد تفتحت أكمامها وازدهرت

وما أنس لا أنس ، إذ قالت لى ، فى تلك الليلة ، أنها كانت تشعر ، بغبطة لا تعادلها غبطة ، حين تنظر إلى تلك الورود ، فتنعم بمرآها وشذاها ، فاقتطفت منها واحدة . ولكى أغالب الاضطراب الذى ساورنى ، رحت أضرب فى الأرض على غير هدى وسط ضباب كثيف ، فى صباح يوم من

شهر نوفمبر . ولقد أوغلت فى السير ، على أنه ما وافت الساعة الثامنة حتى كنت فى قاعة الطعام ، بالقصر ، أتناول ، أو على الصحيح ، أتكلف تناول الفطور . وكنت أعلم أن فى تلك اللحظة تدخل الخادمة إلى غرفة الآنسة شارلوت . فلو أن مكروهاً أصابها ، لاستغاثت الخادمة فى الحال . ولقد سرى عنى حين رأيتها قادمة تحمل آنية الشاى ! وشارلوت لم تقتل نفسها ! فانبعث ميت الأمل فى صدرى ، ولعلها قد فكرت ، بعد أن هدأت ثائرة غضبها ، فاستخلصت ، من آبائى أن أموت ، وأن أدعها تموت ، دليلا على الحب . ولن ألبث حتى أعلم ذلك

وما علىّ أن أنتظرها فى غرفة أخيها الذى أوشك أن يجتاز دور النقاهة . وعلى الرغم من أنه كان محروما من الرياضة ، فقد كانت تبدو عليه دلائل المرح ، كأنه طفل قد بعث إلى الحياة كرة أخرى . فتلقانى ذاك الصباح بأعظم مظاهر الترحيب ، فتضاعف رجائى ، وعسى أن يصل الغلام ما انقطع بين أخته وبينى ، فما من شك فى أن يدى الفتى والفتاة ترتبط حين تمر حول رأس برىء . على أن شارلوت ما كادت تبدو شاحبة اللون ، متوسلة بآلام رأسها ، لتنجو من مداعبة لوسيان ، وعيناها ذابلتان ، حتى أيقنت أنى كنت مسرفا فى الأمل ، حين رجوت التفاهم معها . فحييتها فأبت أن ترد التحية . ولقد وجدتها تفيض حناناً وعطفاً . حلوة الشمائل ، رقيقة العواطف ، قد امتلأت نفسها شفقة ورحمة ، وعرفت فيها فتاة نافرة . وشابة ملك الحب قلبها . والآن رأيت وجهها مقنعاً بقناع الزارية والاحتقار . آه ! من كبرياء

النبـــلاء ! لقد قدرته فى تلك اللحظة ، وقدرت أن الصمت المنطوى على الازدراء، أقتل للنفوس من يد الجلاد . وامتلأت نفسى مرارة ، فلم أشأ أن أرفع راية التسليم والاستسلام . وترقبتها ، ذلك اليوم ، لعلى أراها ، فأسمع كلمة تنحدر من فمها ، ولو أنها إهانة جديدة تقذف بها فى وجهى

وفى اللحظة التى كانت تغشى غرفتها ، وقت الأصيل ، لترتدى ثيابها ، قبل تناول طعام العشاء ، أخذت الطريق اليها . فنحتنى جانبا ، بإيماءة تشف عن الاحتقار ، وعبارة تشعر بالقسوة قالت : « ما عدت أعرفك . . . » ورأيت فمها يختلج غضباً ، وعيناها تنظر إلى شزراً ، فلم أجد السبيل إلى كلمة أقولها لها . لقد حاكمتنى فحكمت علىّ

أجل لقد قضت علىّ . وكان الحكم قاسياً ، واحتماله شديداً ، إذ كنت به خليقا . لقد غمرتنى باحتقارها ، لأنها رأتنى أهاب الموت . وكان حقا ، انى فزعت ، من ظلمة القبر ، حين رأيتها تسند رأسها إلى صدرى . وما كان الخوف وحده ليصدنى عن الانتحار معها ، لولا أن امتزجت الشفقة عليها ، بطموحى كمفكر . لكن ما جدوى ذلك . لقد استسلمت إلى تحت شرط ، فأجبت على ذاك الشرط بكلمة « نعم » ثم عقبت عليها بكلمة « لا » . على أن ما تدعوه ، يا أستاذى العزيز ، بكبرياء الرجل ، كان قويا ، إلى حد أن فكرة امتلاك المرأة ، والتسلط على روحها ومشاعرها ، قد أشبع ذاك الكبرياء ، حتى أن الاذلال الفظيع ، الناجم عن احتقار شارلوت ، لم ينل منى ، كما نال صمتها بعدأن كاشفتها بحبى ، وفرارها من القصر ، وخطبتها .

لقد كانت تغمرنى باحتقارها . على أنها كانت لى . وطوقتها بذراعى ، قبل أن يطوقها غيرى . حقا ، لقد تألمت ، فى الفترة التى انقضت ، بين تلك الليلة وبين رحيلى من القصر ، إلى غـــير عودة . على أنه ، لم يكن اليأس الذى تملكنى ، طوال الصيف ، ولا التسليم ، حـين تألبت علىّ الخطوب ، وتحالفت المصائب

لست أزعم انى كنت سعيداً ، على انى كنت أشعر بالشبع يمـلأ جوانب نفسى ، فاستطعت أن أنهض على قدمى ، وسط العاصفة ، وأتماسك ، خلال الأزمة النفسية . وإذ مرت شارلوت أمامى ، فلم تنظر إلىّ ، إلا كما تنظر إلى شىء زرى مهمل ، أغفله خادم ، تأملتها ، وهى ترقى السلم ، فتمثلتها ، وفمها على فمى ، وقد استسلمت إلىّ . وما آلمنى إلا أن تنقضى تلك الليلة ، وأن لا تعود . ولو أتيحت لى ، كرة أخرى ، لـكنت أبر بوعدى ، وأوفى بعهدى ، واتجرع السم طائعا ، وأرتضى الموت مختارا ، وأمشى إلى ظلمة القبر بساما . على أن تلك السعادة كانت حقاً وصدقا . وكان اليقين بهـا ، كفيلا بانقاذى من ضلال الماضى . وهل قبر ذاك الحب إلى غير بعث ؟

إن موقف الآنسة شارلوت حيالى ، وما صنعت بى ، ليـدل أصرح دلالة ، على أن الحب ، قد ملك قلبها . فهل من المستطاع أن تكون آثاره قد امحت من ذاك القلب ، وجذوته أخمدت فى هذا الفؤاد ؟ اليوم ، وفى ضوء المأساة التى كانت خاتمة مشئومة لتلك المغامرة ، أستطيع أن أدرك ، أن الهوى لم يغادر هاته النفس التى تحلق فى اجواء الخيال . حقا انهـا لم

تفكر ، لحظة واحدة ، فى أن تكون زوجة لى ، وتنشىء عائلة معى . وما أقدمت على ما أقدمت عليه إلا ساعة غاب الصواب فانتزعها من الحياة انتزاعا . لقد أحببت فىّ صورة رائعة ، ومثلا أعلى . أحبت كائنا يغايرنى تمام المغايرة . فلما تبدت لها حقيقتى ، وتكشفت لها طبيعتى ، تبددت أوهامها ، وتناثرت أحلامها ، وكرهتنى بكل ما فيها من قوة للكره

والطبائع التى تجنح للأوهام ، وتنزع للخيال ، تسرف فى الحب والبغض معاً . واأسفاه ! إن دعوى الماى بعلم النفس ، لم تكشف لى عن تطور تلك النفس ، فى ذاك الحين . وما خطر ببالى أنها ستحاول ، بأى ثمن ، أن تزداد معرفة بدخيلتى ، وأنها ، مسوقة باشمئزازها منى ، وتقززها من أساليبى ، ستعاملنى كما تعامل طائفة القضاة ، جماعة المتهمين . وستحاول أن تطالع أوراقى ، فلا يتراجع ضميرها أمام أى اعتبار

ولم يمر بخاطرى أنها لا تحتمل الحياة مشوبة بالعار ، ولا تطيق العيش بعد أن خسرت أعز ما تملك ، فأغفلت زجاجة السم الذى أبيته عليها . وكنت أعتقد أنى دقيق الملاحظة ، قوى المشاهدة ، لأنى أطيل التفكير . على انى كنت فى اعتقادى واهما ، وفى نظرى مخدوعا . فما كان ينبغى لى فى ذاك العهد ، أن أتأمل ، وإنما كان ينبغى لى أن أنظر

وأمعنت فى الضلال ، فخيل إلىّ ، أن شارلوت ، ما برحت تحبنى رغم ازدرائها أياى ، فحاولت أن أبعث الحب من مرقده ، فكتبت اليها . فما راعنى إلا أن أرى كتابى ، فى ذات اليوم ، فوق مكتبى ، ولم يفض غلافه .

فاذا أقبل الليل ، تلمست الطريق إلى بابها ، فدعوتها . فألفيت الباب موصدا ، محكم الأيصاد ، ولم تلق دعوتى سميعا أو مجيبا . فاحببت أن أدنو منها مرة أخرى . فنحتنى بيدها جانبا ، دون أن تنظر إلىّ

فأخذت الأهانة من نفسى كل مأخذ . ولم أقتصد فى البكاء ، حين ردتنى ذاك الرد ، الذى يفيض زراية وازدراء . ثم اعتزمت أمرا . فقد عاد إلىّ قليل من عزمى القديم . وكان ينبغى أن أقدم على ما فكرت فى الاقدام عليه . وأقول ، كى أفضى بالحقيقة كاملة ، أن قدوم مسيو دى بلان ، والكونت أندريه ، كان قد أعلن . فلم يدع ذاك النبأ محلا للتردد والأحجام . فان حضورهما معاً ، إبان نكبة حبى ، واذلال كبريائى ، لما يخرج عن طوق احتمالى . فهاك ما اعتزمت

لقد رجانى المركيز أن أطيل إقامتى لغاية ١٥ نوفمبر إذ نحن فى الثالث منه . فاعلنت ، فى صباح ذلك اليوم المشئوم ، أنى تلقيت من والدتى كتابا يبعث على القلق . ثم أنبأت بورود برقية ، زادت فى قلقى ، وضاعفت من مخاوفى . وطلبت إلى المسيو دى جوسات ، أن يأذن لى ، فى السفر إلى كليرمونت ، صباح الغد . فاذا لم أعد ، رجوت أن يتفضلوا بارسال حاجاتى إلىّ . وقلت ذاك القول ، أمام شارلوت ، وأنا على يقين بأنها ستحمله على محمله الصحيح : « سيذهب إلى غير عودة » . وحسبت أن نبأ الفراق سيهز عواطفها ، وأحببت أن استغل تلك العواطف ، فاجترأت على أن أكتب لها بطاقة تتضمن هذه العبارة : « إن من حق أن أتحدث اليك للمرة الأخيرة

إذا أزمعت أن أهجرك إلى الأبد . فسأحضر اليك فى الساعة الحادية عشرة ».
وقصدت أن لا تعيد البطاقة إلىّ ، دون أن تقرأها. فوضعتها مفتوحة فوق مائدة غرفتها ، مقامرا بنفسى ، مغامرا بشارلوت ، إذا ألقت الخادمة نظرة على تلك البطاقة . آه ! لم خفق قلبي ، حين وافت الساعة الحادية عشرة ، فيممت شطر بابها ، فوقفت بذلك الباب ! ولم يك موصدا . فايقنت أنها ترقب حضورى . وأحسست للنظرة الأولى ، أن الصراع سيكون حادا عنيفا . فلقد تجلى على وجهها أنها لم تدعنى احضر لتغفر لى . وكانت ترتدى ثوبا قاتما . والقت على نظرة هائلة رهيبة

— وما لبثت أن أوصدت الباب ، ووقفت جامداً ، لا أتحرك ، حتى قالت : « سيدى ، انى لأجهل ما اعتزمت أن تقوله لى ، انى لأجهله ، ولا أود أن أعلمه . . . وما أذنت لك فى الدخول ، لأصغى اليك . وأقسم لك ، وأنى لا عرف كيف أحتفظ بكلامى — إنك إن خطوت خطوة ، فحاولت أن تخاطبنى ، لأدعون من يقذف بك خارجاً ، كما يقذف باللص . . . »

وإذ قالت ذلك ، وضعت أصبعها على الجرس الكهربائى . وكانت آيات العزم والتصميم بادية على جبهتها ، وفمها ، واشارتها ، وصوتها ، حتى لقد رأيت أن ألزم جانب الصمت . ثم مضت تقول :

— « لقد حملتنى ، ياسيدى ، على ارتكاب ثلاثة أفعال قبيحة . . . فاما الاول ، فالعذر فيه أنه ماكان يدور بخلدى ، إنك خليق بارتكاب العار الذى ارتكبته . . . » ثم أضافت كأنما تخاطب نفسها : « ومع ذلك فسأكفر

عنه . . . وأما الثانى ؟ فلن أتلمس له الاعذار . . . » واصطبغ وجهها بصبغة الحياء والخجل . « لم أحتمل التفكير فيما صنعت . وأردت أن أستوثق من حقيقتك . أردت أن أعرفك . . . وكنت قد قلت لى أنك تكتب مذكراتك اليومية . فوددت أن أقرأها . . . ولقد قرأتها . . . إذ دخلت غرفتك حين كنت غائباً . ونقبت فى أوراقك . وكسرت قفل كراسة . . . نعم ، لقد فعلت ذلك ! . . . فجوزيت عن فعـــلى ، بأن طالعت فى تلك الصفحات ما طالعت . . . وأما الثـالث . . . فاذ أقوله لك ، فانما أوفى الدين الذى اشتركت فيه معك . . » وترددت : « لقد كتبت إلى أخى ، تحت سلطان الغيظ الذى ملأ نفسى . أنه يعلم كل شىء . . »

— فصحت : « آه ! إنك هالكة لا محالة . . . »

— فقاطعتنى ، ووضعت يدها على الجرس من جديد : « أنت تعلم أنى أقسمت ، لا تنبس بكلمة واحدة . . . فلست أستطيع أن أهلك ، أكثر مما هلكت » واستأنفت القول : « ولن يصنع كائن من كان ، شيئا لى أو علىّ . وسـيعلم أخى ذلك ، وما صحت عزيمتى عليه . فسيصله الخطاب غداً صباحاً . ولقد رأيت من واجبى ، أن انذرك ، مادمت تحرص على حياتك . والآن ، فاخرج من هنا . . . »

— فتوسلت اليها قائلا : « شارلوت . . . »

— فنظرت إلى ساعة الحائط وقالت : « إذا انقضت دقيقة ولم تخرج فسأدعو . . . »

كلمة الختام

فأطعت صاغراً ! وما وافت الساعة السادسة من صباح غد ، حتى غادرت القصر ، وأنا فريسة لأسوأ ضروب القلق ، وشر ألوان الاضطراب. وحاولت ، عبثاً ، أن ألق فى روعى ، أن تلك المشادة لن يكون لها مابعدها . وأن الكونت أندريه سيقدم ، فينقذها من انفاذ خطة أملاها اليأس . وأنها هى نفسها ، ستردد فى اللحظة الأخيرة ، فتقف بين الأقدام والأحجام . وأن حادثا غير مرتقب سيحدث ، فيحول بينها وبين الاجهاز على نفسها . . فمن يدرى ؟ وأما ان أتعلق بأذيال الفرار ، وأتراجع أمام انتقام أخيها ، فذلك مالم يخطر لى ببال . فقدآليت ألا أدع أحداً يقدم على إذلال كبريائى . فلئن كنت قد تخاذلت أمام فتاة ، فما أنا بمتخاذل امام رجل يبرق ويرعد ، ويتهدد ويتوعد . وقدمت إلى كليرمونت نهباً مقسما للاضطراب . على ان فترة الاضطراب لم تطل ، إذ علمت بانتحار الآنسة شارلوت . ولم ألبث أن قبض علىّ ، وقدمت إلى قاضى التحقيق فتبينت ملابسات ذاك الانتحار : فلقد تناولت شارلوت قسطاً من السم الذى ابتعته ، يكفى للقضاء عليها . وأقدمت على فعلتها فى ذات اليوم الذى طالعت فيه مذكراتى اليومية . على أنى لم ألق لهذا الأمر بالا ، إذ كنت معنياً بغير تلك المذكرات العقيمة . ولقد حرصت شارلوت ، كيلا تثير شكوكى ، على أن تضع ماء بدل السم الذى أخذته . ثم ألقت الزجاجة من النافذة ، مخافة أن يعلم أبوها أو أمها بانتحارها عن غير طريق أخيها

وعلى الرغم من أنى كنت أعلم الحقيقة كاملة عن تلك المأساة المروعة ، وأستطيع ان أقدم تلك المذكرات لتكون قرينة على براءتى ، فانى ، مالبثت أن خرجت من التحقيق ، حتى مزقتها كل ممزق . وأبيت أن أتكلم ، وأن أدافع عن نفسى ، — بسبب ذلك الأخ . فلقد قلت لك أنى شربت كأس الذل حتى الثمالة ، فلم أعد أطيق ذلا جديداً . فهذا الرجل الذى فاضت نفسى بالحقد عليه ، والذى تتمثل لى شارلوت فى شخصه ، يعلم الحقيقة كاملة ، فيعدنى أدنى الأدنياء . على أنه ليس من حقه ، أن يسرف فى احتقارى . نعم ، ليس من حقه ، فنحن الاثنان نلزم الصمت معاً . ولكن صمتى ، يفضى بى إلى المقامرة برأسى انقاذاً لشرف تلك التى قضت . واما صمتة ، فمعناه التضحية ببرىء على هيكل ذاك الشرف . فأينا الشجاع ؟ أنا الذى أبى الدفاع عن نفسه محتمياً خلف جثة شارلوت ، أم هو الذى يحتفظ بالخطاب المتضمن خبر انتحارها ، ليثأر من عاشق أخته بأن يدعه يقضى عليه كأنه قاتل ؟ وأينا بعد هذا النبيل ؟

إن رفضى الدفاع عن نفسى ، ليمحو الخجل الناشىء عن ضعفى ليلة اسلمت شارلوت نفسها إلىّ . وأنى لأشعر بالكبرياء يملأ جوانحى ، حين أرانى أحتمل كل تلك الآلام ، دون أن أقتل نفسى ، لأضع حداً لها . وما أرى الكونت أندريه الا ماضياً فى طريق العار إلى النهاية . فاذا قضى علىّ ، وهو يعلم براءتى ، ويحمل دليلها بيده ، ثم يلتزم الصمت ، فلن يكون لدى أسرة جوسات راندون ما تأخذنى به

ولكنى أفضيت اليك بكل شىء ، ياأستاذى الجليل . وكشفت لك عن دخيلة نفسى . وما أنا بحاجة لأن أذكر العهد الذى أخـــذته عليك ، إذ استودعتك هذا السر . فما أنت ممن ينكث العهد . على أنك ترى ان هذا الصمت يضيق أنفاسى . أجل ، لقد ضقت ذرعا بهذا الكابوس الجاثم فوق صدرى . ضقت ذرعا بتأنيب الضمير . وأصبحت بحاجة إلى صوت يرثى لحالى ، ويبدد الأشباح التى تتراءى لى

ولقد فكرت فى الأسئلة التى كنت أود أن أوجهها اليك . وظننت أنى سأبسط لك تاريخى كما بسطت نظرياتك فى مؤلفاتك التى طالما أقبلت على مطالعتها ، فلم أجد ما أقوله لك غير كلمة اليأس : « من الأعماق ! » فاكتب إلىّ يا أستاذى العزيز ، وخذ بيدى وسط ذاك الظلام المتحجر . وثبت عقيدتى ، بان أبغض الأعمال وأقبحها ، حتى اعتزامى ، فى دم بارد ، وضمير جامد ، أن أخدع شارلوت عن عفافها ، وحتى تخاذلى بعد أن تواصينا بالموت معاً ، ليست الأجزاءاً من نواميس هذا الكون العظيم . قل انى لست مسخاً دميما ، وأنك سوف ترتضينى ، إذا اجتزت تلك المحنة ، تلميذاً وصديقاً . فلو كنت طبيبا ، وجاءك مريض يكشف لك عن جرحه ، لدفعتك الانسانية إلى تضميده . ولأنت طبيب نفوس عظيم . وبنفسى جروح عميقة دامية . فهلا قلت كلمة تروح عنها ، ولا زلت موضع الاجلال والاكبار من الوفى المخلص

« روبير جرسلو »

الاضطراب الفكرى

مضى شهر كامل ، مذ حملت والدة روبير جرسلو ، تلك الوثيقة الغريبة إلى أدريان سكست ، فتردد فى قراءتها . وما أن قرأها ، حتى بات الفيلسوف أربعة أسابيع طوال ، صريع الاضطراب . وما استطاع أن يخفى اضطرابه عن أعين الناس . فمشوا بعضهم إلى بعض يتساءلون عما دهى الفيلسوف فغير أطواره ، وبدل أحواله ، وراحت الآنسة « ترايينارد » تتحدث إلى جماعة « كربونيه » . لقد لبث أدريان سكست ، طوال خمسة عشر عاما ، مثال الدقة والضبط ، فى ذهابه وإيابه ، وغـــدوه ورواحه ، كأنما هو « كرونومتر حى » وسط حى حديقة النباتات الهادىء الساكن . ثم أصبح أليف اضطراب وقلق ، دون سبب ظاهر . فمذ زارته مدام جرسلو ، وهو كريشة فى مهب الريح ، لا يستقر على حال . فاذا خرج للرياضة ، نازعته نفسه إلى العودة . وإذا عاد لا يلبث أن يتبرم بغرفته.وإذا سار فى الطريق ، لم يسر بخطى منتظمة ، فتارة يستحث السير، وطوراً يقف ، وأخرى يلوح بيديه ، كأنما هو فى حرب مع نفسه . وتجلت مظاهر أخرى لاضطرابه . فقد روت الآنسة « ترايينارد » إلى حارس الباب ، وامرأته ، انه لم يعد يأوى الى فراشه ، قبل الساعة الثانية أو الثالثة صباحا :

ـــ وقالت الفتاة : « وليس العمل مبعث اضطرابه . فانه يمشى . . . ثم يمشى . ولقد اعتقدت لأول وهلة انه مريض .فنهضت كى أسائله عما إذا كان يبغى دواءاً . . . فما راعنى إلا أن رأيته يردنى بجفاء وغلظة ، وهو الذى

عهدته جم الأدب ، وديع النفس ، طويل مدى الاناة . . . »

— فاجابت امرأة الحارس : « أما أنا فقد رأيته جالسا فى قهوة ! . . فما صدقت عينى . . وكان يقرأ صحيفة . . ولو لم أعرفه ، لوليت منه فرارا ولملئت منه رعبا . . . ولو رأيت ثم رأيت وجها مكفهرا ، وجبينا مقطبا ، وفما ملتويا . . . »

— فصاحت الآنسة « ترايينارد » : « القهوة ؟ . . . لقد مضى علىّ فى خدمته ، زهاء ستة عشر عاما ، لم أره فى خلالها يفتح صحيفة . . . »

— وقال الحارس : « إن الرجل حزين . . . ويرجع تاريخ حزنه إلى يوم أن استدعاه قاضى التحقيق ، وزارته السيدة المتشحة بالسواد . . . وأكبر ظنى أن له غلاماً يثير متاعبه . . . »

— فصاحت الآنسة ترايينارد فى دهشة وذهول : « سبحانك ربى ! كيف يكون له غلام ؟ »

— فمضى الحارس يقول : « ولماذا لا يكون له غلام ، وللصبا عنفوانه وللشباب فورته وجنونه . . . »

— وهال الآنسة «ترايينارد» ما سمعت من فم الحارس ، فراح يملأ سمعها بالاشاعات التى استفاضت عن ادريان سكست مذ تغيرت أطواره ، وتبدلت أحواله ، فلقد تضافرت ألسنة السوء على القول بأن استدعاء قاضى التحقيق للفيلسوف هو منشأ اضطرابه . وقال نسوة فى المدينة إن ثروة

المسيو سكست قامت على وديعة فى ذمة أبيه لم يحسن القيام عليها ، فأصبح حقاً على الابن إن يرد الأمانة إلى أهلها . وكان القصاب يقول لمن يريد أن يستمع اليه : أن هـذا العالم متزوج ، فأقبلت امرأته تثير فى وجهه حربا عوانا ، وأقامت عليه دعوى أمام القضاء . وقال بائع الفحم ، إن هـذا الرجل الشريف أخا قاتلا . وكان القاتل الذى يلمح اليه قد ارتكب جريمة مروعة اثارت ثائرة الرأى العام

فاستنكرت الآنسة « ترابينارد » تلك الأشاعات التى يروجونها ، والأراجيف التى يذيعونها ، فأقسمت أن تصم أذنيها عن سماع الأشاعات ، وتعرض عن المرجفين

وحقاً أنها كانت تشعر بمحبته ، وتجل فيه الانسان المهذب ، والرجل المثقف ، الذى طالما تحدثت عنه الصحف . وتكبر منه أن يدعها ربة البيت فلا يناقشها الحساب . وكان من دواعى أغتباطها ، أن ترعاه وتسهر على راحته ، وهى القوية المتينة ، وهو الضعيف المهزول ، وأن تظلل بحمايتها ، رجلا غراً ساذجا ، فى وسع غلام أن يتغفله . . . فما من عجب أن تعرض عما يرجفون به ، وأن تستشعر الوحشة بعد تبدل أحوال سيدها . وما آلمها إلا أن تراه لا يكاد يذوق الطعام ، ولا ينام إلا غراراً . ورأت سحابة الحزن ترتسم على وجهه ، فما استطاعت أن تسرى عنه ، أو تتبين منشأ الحزن ، ومبعث الاضطراب . وجاءها « سكست » بعد ظهر يوم فى شهر مارس حوالى الساعة الخامسة ، وقد تناول الغذاء فى الخارج ، وأقبل يقول لها

— « هل الحقيبة مهيئة يامرييت ؟ »

— فاجابت الخادمة : « لست أدرى ، ياسيدى . فما أذكر أن سيدى أستخدمها مذ أقبلت على خدمته . . . »

— قال الفيلسوف : « إذهبى فابحثى عنها »

فاطاعت الفتاة . وما لبثت أن حملت حقيبة كساها الغبار ، وعلا الصدأ أقفالها ، وفقدت مفاتيحها

— فقال مسيو سكست : « حسن جداً . ما عليك إلا أن تشترى حقيبة مثلها ، وأن تضعى فيها كل ما يتطلبه السفر . . . »

— « فتساءلت الآنسة ترايينارد : « أمسافر أنت يا سيدى ؟ »

— فقال الفيلسوف : « نعم ، بضعة أيام . . . »

— فقالت الخادمة : « ولكن سيدى يعوزه كل شيء يتطلبه السفر . ولا يستطيع سيدى أن يذهب على تلك الصورة ، بغير غطاء للسفر ، بغير . . . »

— فقاطعها الفيلسوف : « هيا هيئى كل ما يتطلبه السفر . فسأستقل قطار الساعة التاسعة . »

— « وهلا يرى سيدى أن أصحبه ؟ . . . »

— فقال سكست : « كلا ، لا جدوى فى ذلك . هيا ، فليس فى الوقت متسع . . . »

— فلما روت الآنسة «ترابينارد» هذا الحادث الجديد للحارس، وهو حادث لا يقل غرابة عما قيل من إعلان زواجه، قال: «ان أخوف ما أخاف أن تكون خطرت له فكرة القضاء على نفسه»

— فقالت الخادمة: «آه! لو ارتضى أن أصحبه!... لقد كنت أتحمل نفقات السفر راضية...»

ودلت لهجة الآنسة ترابينارد عن مبلغ ما ساورها من القلق على سيدها. وفى الواقع، فان الفيلسوف، لم يكد يقرأ مذكرة روبير جرسلو، حتى أخذ منه الاضطراب كل مأخذ. وكان فزعا مرتاعا حين أمر خادمته أن تهيء له الحقيبة، كما كان جزعا مروعا حين طالع تلك الصفحات. فالحق أنها تكشفت عن روح إجرامية، ونفس تتنازعها عوامل الكبرياء والخجل، وتضطرب فى جوانبها دواعى القحة والعار

وما إن طالع الفيلسوف عبارة روبير جرسلو التى يصارح فيها بانه يرتبط معه برباط وثيق، حتى بلغ منه الاضطراب كل مبلغ. كذلك كان يجزع كلما رأى اسمه يذكر فى سياق تلك المذكرة، ورأى ذاك الشاب المتشبع بروح الاجرام، يسوق الاستشهاد تلو الاستشهاد، من مؤلفاته، مما يؤكد أنه تلميذه حقاً. ولقد ساقه حب الاستطلاع إلى مطالعة ذاك التاريخ إلى النهاية، فهاله أن يرى علمه وآراءه متصلة بتلك الأعمال الشائنة

وياليت الأمر وقف عند هذا الحد! فقد زعم متهم مدينة «ريوم» أن ذاك العلم، وتلك الآراء، تعتبر مبررا، وتعد سببا، لأبشع فعلة

أملاها الفساد الخلقى ! وكلما اوغل سكست فى المطالعة ،كان يشعر بان شخصيته قد تلوثت ، وتعفنت ، بل تسممت ، رغم أن المشاعر التى تكشف عنها تلك المذكرة ، هى أبغض المشاعر إلى نفسه . فقد كان ذاك الفيلسوف العظيم عف الضمير . وكان إلى عقليته الهدامة ، يحمل فى صدره قلباً رحيما ، وينطوى على أشرف العواطف ، وأنبل النزعات . فهذا الضمير الحى الذى لا تشوبه شائبة ، وذاك الشرف الرفيع الذى لا ترقى اليه شبهة . أو يرتفع اليه شك ، أو يتعلق به غبار ، هما اللذان تاذيا من الأثم الذى اقترفه ذاك المدرس الأثيم

وراع الفيلسوف أن يرى شابا يمزق عرض فتاة على تلك الصورة الدنيئة ، ويرتكب أبشع الجنايات وأشنعها ، ثم تتوج المأساة الفاجعة بانتحار يمزق نياط القلوب ، فراح يقلب النظر فى فتك نظرياته بالعقول الفجة ، وافساد آرائه للنفوس الغضة ، وهو هو الذى عاش طوال حياته ، طاهر الذيل ، عف الضمير والنظر

وهاله أن يرى مغامرة «روبير جرسلو» تتكشف عن اشتراك مؤلفاته فى الفعال القبيحة التى يمليها كبرياء بشع ، وتوحى بها اهواء جامحة ، وهو هو الذى وقف جهوده على البحوث النفسية ، وجعل نصب عينيه ، خدمة علم النفس ، كعامل متواضع ، يلقى البذرة الصالحة ، لتأتى بخير الثمرات ، ويعرض على نفسه أقسى ضروب الزهد ، وأشد ألوان التقشف ، حتى لا يجد خصوم مذهبه ، سبيلا إلى التشكيك فيه ، من طريق التهجم على شخصه . ولو أن طبيبا اكتشف علاجا ، فبادر أحد مساعديه إلى تطبيقه ،

فبات فريق من المرضى فى النزع ، لشعر الطبيب بالحزن والألم . وكذلك كان شأن أدريان سكست . ولو أن رجلا ارتكب الشر ، وهو يعلم ذلك ويريده ، لفاضت نفسه ألماً ومرارة لو كان يؤثر ضميره على فعاله . فما بالك برجل كرس ثلاثين عاماً من أعوام حياته للقيام بعمل ، وكان يعتقد بجدوى ذاك العمل ، فوقف جهوده عليه ، وأخذ يصد هجمات خصومه ، ويدفع اتهاماتهم الباطلة بمنافاته للأخلاق ، فاذا به يشهد ، على ضوء مأساة مروعة ، ويرى بعينه ، ويلمس بيده ، الدليل على أن ذاك العمل قد سمم نفساً ، وإنه ينطوى على مبدأ الموت ، ويبث ذاك المبدأ فى جوانب العالم . لاشك أن الصدمة العنيفة التى يتلقاها ، لا يهون احتمالها ، والجرح الذى يدمى قلبه لا يلتئم بحال

ولقد مرت فترة الألم هذه بجميع المفكرين الذين ينزعون إلى الثورة . على أن غالبيتهم يجتازونها بسرعة ، فقد يندر أن ترى رجلا يزج بنفسه فى غمار الأفكار ، ثم لا تفتر حرارة اخلاصه ، فيصبح ممثلا أكثر منه عاملا مخلصاً . على أنه يظل يلعب الدور الذى بدأه . ويلتف الأنصار حول رايته ، وينضوى الاشياع تحت لوائه . ثم لا تلبث الحياة أن تصدمه بحقائقها ، فينكمش خياله ، ويتضاءل مثله الأعلى . ويعلل النفس ، بأن الحياة مزيج من الخير والشر ، والحق والباطل ، والحقيقة والخيال ، وأن العالم هو العالم ، والناس هم الناس ، فى كل زمان ومكان

على إن اخلاص أدريان سكست لم يكن من ذاك الطراز الذى يبيح الترخص فى الضمير ، والتفريط فى المثل العليا . فلم يكن لديه دور ليقوم

بتمثيله ، ولا كان له أنصار يترضاهم ، أو أشياع يتملق شعورهم . وإنما كان يعيش بنفسه ، ولفكرته . ويفنى ، فى فلسفته ، لا فى شخصية غيره .
وإذا كان الاسم الذى يملأ الأفواه والأسماع ، والشهرة المستفيضة التى تطبق الخافقين ، كل أولئك يحمل على المجاملة والمصانعة ، فقد ظل أدريان سكست ، رغم اسمه الداوى ، وشهرته الخفاقة ، جافا لا يعرف المصانعة ، عزيز النفس لا يدرى المجاملة والمداجاة. وكان يعيش بين ظهرانى المجتمع وكانه ليس من أبنائه

فاما العواطف التى رسم صورها ، والجرائم التى توفر على دراستها ، فقد كانت تبدو له ، كتلك الشخصيات التى تشير اليها المشاهدات الطبية : « فلان . . . ، عمره ٣٥ سنة ... صناعته كذا . . . ، أعزب . . . » ثم يسهب الطبيب ، فى بيان الحالة ، دون التعرض لشخصية المريض . وقصارى القول أن ذاك الذى أشبع الكلام عن العواطف ، وأفاض فى تحليل الارادة ، لم يواجه انسانا من لحم ودم . حتى ان مذكرة روبير جرسلو لم تجرح ضميره فحسب ، وإنما أدمت خياله ، وضميره معاً

أجل ، لقد آذت تلك المذكرة خيال الفيلسوف ، كما يؤذى ضوء الشمس عين الأرمد . ولبث ، طوال الثمانية الأيام التى تلت قراءتها ، يشعر بألم مضاعف ، معنوى ومادى . وشعر هذا الذى لم يضرب الا فى بيداء النظريات المجردة ، بثقل الكابوس الجاثم فوق صدره . وتمثلت له صورة تلميذه البغيض ، كيوم أن رآه فى غرفته ، يمشى على أرضها ، ويعتمد

على منضدتها ، ويروح ويغدو فى جوانبها . وانبعث من ثنايا السطور صوت يهيب به ، فيملأ سمعه بتلك العبارة الرهيبة : « لقد عشت بفكرتك ، ولها ، بكل مافى من جهد وعاطفة . »

وما كانت كلمات الاعتراف حروفا مسطورة بمداد بارد ، فوق ورق جامد ، وانما بات يكمن فى ثناياها ، كائن ينبض بالحياة . فلما تراءت له تلك الصورة المفزعة المروعة ، صاح صيحة الألم : « آه ! لماذا جاءتنى الأم بتلك الكراسة ؟ » . ولقد كان من الطبيعى ، وقد باتت الأم فريسة لشر أنواع القلق ، وأسوأ ألوان الاضطراب ، متهالكة على تثبت براءة ولدها ، أن تنتهك حرمة الوديعة ! لكن لا ، فقد خدعها روبير ، متوسلا بذاك الرياء الذى طالما فاخر ذاك الشقى به ، كما يفاخر بانتصار فى ميدان علم النفس

ولقد كان يكفى أن يتمثل أدريان سكست وجه ذلك الشاب حتى يملأ الاضطراب جوانحه . ولما صاحت الأم فى وجهه : « لقد أفسدت ولدى » لم تمسسه تلك الصيحة كعالم يدين بعلمه ، ويؤمن بنظرياته ، ولا يرى أن العلم يفسد النفوس ، والنظريات البريئة تدفع إلى الاجرام . لم يأبه لصيحة الأم ، ولم يحفل بالاتهامات التى أزجاها المسيو دى جوسات ، ورددها قاضى التحقيق . لا بل لم يهتز لعبارة القاضى عن المسئولية الأدبية . ولقد غادر دار العدالة ، أهدأ ما يكون نفساً ، وأروح ما يكون ضميراً ! بل ليس من الغلو فى شىء أن يقال انه برح غرفة التحقيق فرحا

فاما الآن فقد خانه جلده . وفارقه سكونه . وبات ، وهو الفيلسوف

الذى ينكر كل حرية ، ويدين بالجبرية ، ويؤمن بالقضاء والقدر ، فيحلل الفضيلة والرذيلة ، غير متورع ولا متأثم ، كما يقبل الكيميائى على دراسة غاز من الغازات ، وهو النبى الذى يبشر بسير الكون سيراً ميكانيكيا ، والذى عرف الانسجام بين قلبه وعقله ، يشعر بألم يتناقض تناقضا صارخا مع كافة مذاهبه العلمية ، ونظرياته النفسية : — لقد بات مثل تلميذه ، يحس بوخز الضمير ، ويشعر بالمسئولية

قرأ الفيلسوف المذكرة ، وأعاد قراءتها ، فتجلى له الخلاف بين قلبه وعقله . وكان يتريض فى حديقة النباتات ، فآوى إلى جذع شجرة كان يؤثر أن يتفيا ظلالها إذ كتب عليها . . . « غرست فى عام ١٦٣٢ . . . » وهو العام الذى ولد فيه « سبينوزا » . وكان للطقس أثره المحمود فى تهدئة أعصاب أدريان سكست . وأصبح يحلو له أن يرقب طفلين يلعبان عن كثب من أمهما . ولبث الطفلان يجمعان الرمال ليشيدا منها بيتاً وهمياً . ونهض أحد الطفلين فاصطدم بمقعد خشبى . وكانت الصدمة أليمة ، على أنه لم ينفجر بالبكاء الا بعد بضع ثوان ، والأطفال تخنقهم العبرات ، قبل أن يبكوا وينتحبوا . ثم هاج وماج ، وانفجرت براكين غضبه ، فأخذ يضرب المقعد بقبضة يده .

فقالت له أمه ، وهى تدلله ، وتكفكف غرب دموعه : « ما الذى دهاك ياولدى ؛ وكيف تثور ثائرتك ضد قطعة من الخشب . . . »

فلما رأى الفيلسوف هذا سرى عنه . وفكر فيه طويلا فقال لنفسه :

« ما اشبهنى بهذا الغلام الصغير . إن سذاجة الطفولة تصور له الجامد حياً ، فيجعله مسئولا ، ويحمله التبعة . . . وهل صنعت أنا غير ذلك طوال أسبوع ؟ . . . » ولأول مرة منذ قرأ المذكرة اجترأ على أن يصوغ فكرته بوضوح : « لقد اعتقدت أنى أحمل قسطاً من المسئولية فى تلك المغامرة الشنيعة . . مسئولية ؟ . . ان تلك الكلمة لا طائل تحتها ، ولا معنى لها . . »

ولبث يحلل عناصر المسئولية . ورأى نفسه مسوقا إلى التفكير فى جرسلو السجين اليوم فى السجن الانفرادى رقم ٥ فى مدينة « ريوم » وجرسلو الطالب بالأمس بمدينة كليرمونت والمكب على دراسة « نظرية العواطف » و « روح الله » فآلمه أن يكون ذاك الفتى قد تناول مؤلفاته ، فانعم النظر فيها ، فأحبها . وثارت فى خاطره العبارة الواردة فى مذكرة جرسلو ، والتى يقول فيها : « إنى لأشعر بتأنيب الضمير ، على حين أن المذاهب التى أدين بها ، والحقائق التى أؤمن بصحتها ، والعقائد التى يتألف منها جوهر عقلى ، تجعلنى أعتبر الضمير أغبى الأوهام الانسانية جميعا . . »

وقال الفيلسوف فى نفسه : « لكن ماذا صنعت من سوء ؟ وفيم يؤنبنى ضميرى ؟ وكيف أحتمل تبعة المأساة الفاجعة التى أثارها ذلك الشرير الفاجر ؟ وأين الخطأ الذى ارتكبته ؟ . . » واستعرض تاريخ حياته فوجد أنه اتخذ الحقيقة ديناً . فلم يكتب الا ليناصرها ، ولم يخط حرفا إلا فى سبيل تاييد قضيتها . وفى سبيل الحقيقة ضحى بكل شىء : بالثروة ، والمنصب ، والأسرة ، والصحة ، والحب ، والصداقة . ولم يحد يوما عن شعاره :

افض بكل فكرتك ، ولا تفض إلا بفكرتك » . وفى تلك الليلة نام الفيلسوف ملء جفونه ، ولم تزعجه فى نومه رؤيا روبير جرسلو

وفى الغد ، نهض ادريان سكست من نومه هادىء البال . ثم أخذت تتنازعه الخواطر . فرأى فى عنقه دينا لا بد أن يؤديه لروبير جرسلو . وحقا إن الأستاذ مسئول عن تلميذه ، وإن أساء التلميذ فهم مبادئه وتعاليمه . وهنا اضطربت نفس الفيلسوف ، للمرة الثانية . ولكم هم بأن يكتب لروبير جرسلو . على انه كان لا يدرى كيف ينجز ما بدأ . فماذا يقول لذاك الشاب التعس ؟ أيلومه ؟ وباسم أى مبدأ يلومه ، وهو القائل ، بان الفضيلة والرذيلة ليست إلا مسائل اعتبارية ، والخير والشر اصطلاحات اجتماعية لا طائل تحتها ، ولا غناء فيها ؟ أى نصيحة يبذلها له فى المستقبل ؟ وكيف السبيل إلى اصلاح فتى لم يجاوز الثانية والعشرين ، وقد نفخ الغرور رأسه ، وأفسدته الشهوات الجامحة ، والفضول المعيب ، والنزوع إلى مخالفة الاجماع ، والتنكر لكل ما اصطلح الناس على انه شرف ، وتواضعوا على انه فضيلة . وهل من سبيل إلى اقناع الأفعى بألا تنفث سمومها ؟

وظل الفيلسوف فى حرب نفسية حتى حدث ما زاد الحرب ضراما . فقد أرسل اليه مجهول صحيفة تحمل مقالا عنيفاً ، أثار حملة شعواء عليه ، وعلى تأثيره السىء ، بمناسبة روبير جرسلو . وما من شك فى أن الوحى قد هبط على كاتب المقال ، من أحد ذوى القربى ، أو المتصلين بأسرة جوسات ، فوصم الفلسفة العصرية ومذاهبها ، ودمغ دعاتها ، والهاتفين بآرائها ، وعلى

رأسهم ادريان سكست ، ومن لف لفه من العلماء . ثم ضرب مثلا ، فأشار إلى قاتل الآنسة شارلوت وهو يمشى نحو أداة الأعدام ، فيبرىء الشبان من أدواء الفلسفة الحديثة . ولو كان العالم العظيم ، فى موقف غيرهذا الموقف، لابتسم إشفاقا لهذا الكلام الأجوف . ولظن أن خصمه ديمولان ، هو الذى بعث اليه بالصحيفة ، ولأقبل على عمله هادئاً ، هدوء « ارخميدس » ، حين كان يخط رسومه الهندسية ، على الرمل ، والمدينة فريسة للنهب والسلب . ولكن راعه أن يرى تلك المأساة الخلقية ، تتمشى جنباً إلى جنب مع مأساة حقيقية . وما هى إلا بضعة أسابيع ، أو بضعة أيام ، حتى يساق إلى المحاكمة ، ويقف موقف الاتهام ، ذاك الذى يحمل بيده دليل براءته

والآن ، فان خادع الآنسة شارلوت برىء فى عرف العدالة الانسانية . ولئن لم تكن تلك المذكرة شهادة قاطعة ، فان جانب الصدق فيها يكفى لأنقاذ رأس المتهم . أفيدع ذلك الرأس يطيح ، وهو الذى استودعه ذلك الشاب ، سر بؤسه ، وفعاله الشائنة ، وخياناته السوداء ، على أنه يعلم ، إلى جانب ذلك ، أن هذا الشرير الفاجر ، ليس قاتلا ؟ حقاً لقد كان مقيداً بالعهد الذى قطعه على نفسه حين فض غلاف تلك المذكرة ، وطفق يطالعها . لكن هل العهد مشروع حيال الموت ؟ وكذلك لبث ادريان سكست بين الأقدام والأحجام ثم اتخذ خطة

فلقد طالع فى الصحف أن قضية جرسلو ستطرح أمام محكمة جنايات

« ريوم » فى يوم الجمعة ١١ مارس . وفى اليوم السابق أمر مرييت أن تهيء له حقيبته . وفى المساء ، استقل القطار ، بعدأن ألقى فى صندوق البريد كتاباً موجها إلى الكونت اندريه دى جوسات الضابط بفرقة الخيالة بحامية « لو نيفيل» . وكان الخطاب غفلامن الأمضاء ، ولا يتضمن إلا هذه الأسطر « إن بيد الكونت دى جوسات ، خطابا من أخته ، يحمل الدليل على براءة « روبير جرسلو » . أفيسمح بأن يقضى على برىء ؟» ولم يستطع ذاك الفيلسوف الهدام أن يكتب كلمات « الحق » و « الواجب » . على أن عزمه قد استقر وتربص حتى تنتهى الدعوى ، ثم يتكلم . فاذا التزم المسيو دى جوسات الصمت إلى النهاية ، وإذا قضى على جرسلو ، فسيضع المذكرة بين يدى الرئيس فى الحال

— وقالت الآنسة ترابينارد للحارس « كاربونيه» بعد أن رجعت من المحطة حيث صحبت سيدها على الرغم منه : « لقد أخذ تذكرته إلى «ريوم» فكيف خطر له أن يذهب إلى هناك وحده ، فى هذا الشتاء ، وهو الذى قد توافرت له أسباب الراحة هنا ؟ . . »

فأجاب الحارس : « هدئى روعك يا آنسة مرييت . ففى الأمر سر سوف تكشفه الأيام . . . وأغلب الظن عندى ، أن فى طيات المسألة ولداً غير شرعى . . . »

الكونت أندريه

كان الكونت اندريه فى مدينة « ريوم » ، فى اللحظة التى وصل فيها خطاب ادريان سكست الى « لونيفيل » ، يحمل الدعوة إلى ذاك الذى بات مصير روبير جرسلو معلقا بيده . وشاءت الأقدار ألا يلتقى الرجلان ، فقد أخذ كل منهما طريقاً غير طريق صاحبه ، ونزل فى فندق غير فندقه

وفى صباح يوم الجمعة ١١ مارس عام ١٨٨٧ فتحت جلسة الجنايات ، وأخذت المحكمة تنظر فى قضية روبير جرسلو . وكان الكونت اندريه ، أخ شارلوت ، يروح فى بهو الفندق ويغدو ، وأوشك النهار أن ينتصف . واستطاع ياور الكونت أن يهىء النظام فى البهو . ولبث يرقب ضابطه وهو يقطع المسافة جيئة وذهوبا ، فيفتل شاربه بيد عصبية ، ويعض شفته ، ويقطب جبينه ، ويعقد ما بين عينيه ، بما لا يدع مجالا للشك فى أنه صريع الاضطراب والقلق

ولاح للجندى أن الكونت لم يستطع أن يضبط شعوره أثناء محاكمة قاتل أخته . وما كان هو ، أو غيره ممن اتصلوا بأسرة جوسات راندون وعرفوا شارلوت ، ليشكوا فى إدانة روبير جرسلو . على أن الذى لم يتبينه الجندى الأمين ، هو أن ضابطه ، بما عهد فيه من همة ، وعرف عنه من نشاط يدع المركيز ، وهو شيخ كبير ، يشهد الجلسة وحده . وقال الكونت لياوره وهو يهىء المائدة للطعام : « إن ذلك ليؤلمنى جد الألم » . وإذ رأى الجندى

مظاهر الغم مرتسمة على وجه سيده قال لنفسه : « إنه لطيب القلب رغم ما به من خشونة وغلظة .. كم كان يحبها ! .. »

وما كان اندريه دى جوسات يشعر بوجود أحد معه فى الغرفة . وما كانت عيناه السوداوان اللتان طالما قذفتا الروع فى قلب روبير جرسلو ، ترسلان النظرة التى تفيض عزة وكبرياء شأنهما عادة . بل كان ينبعث منهما ما يشبه الخجل ، والخوف من ابداء ما يساور النفس من ألم . ويرجع تاريخ ألمه هذا إلى اليوم الذى تلقى فيه كتاب اخته المؤذن بعزمها على الانتحار . فبرقية معلنة موت شارلوت . فاستقل القطار إلى « أوفرنى » على عجل ، وهو لا يدرى على أى صورة يكاشف أباه بالحقيقة الرهيبة ، وإنما عقد العزم على أن يثأر من جرسلو . وتلقاه المركيز بهذه الكلمات :

— « اتسلمت برقيتى الثانية ؟ . . . لقد وضعنا يدنا على القاتل . . . »

فلم يقل الكونت شيئاً ، علماً بأن سوء التفاهم قائم بين أبيه وبينه . وطفق المركيز يروى الشبهات الملقاة على المدرس ، ويقول : « سيلقى القبض عليه كقاتل » . فتسلطت الفكرة التالية على ذهن الأخ الذى طار صوابه من هول الصدمة : إن القدر يحمله ثقل الثأر . وقد بات الثأر نصب عينه ، ومناط تفكيره ، مذ قرأ ، والأسى يملأ فؤاده ، اعتراف التى قضت ، وبيان بؤسها ، وضلالها ، ومقاوماتها ، وكيف هبت من نومها مذعورة ، وكيف اعتزمت أن تجهز على نفسها . وما كان عليه إلا أن يخفى هذا الخطاب الذى يحمله فى

مخفظته ، حتى يتهم ذاك الجبان الذى عبث بشرف الفتاة ، فيقضى عليه دون شك . وبذلك تنقذ سمعة شارلوت ، ويسلم شرفها من الأذى ، إذ كان روبير جرسلو لا يستطيع أن يبين حقيقة علاقته بالفتاة . ويوفر على أبويها اللذين وضعا ثقتهما فى ابنتهما ، وانطويا على أصدق الحب لذكراها ، أن يعلما بالخطأ الذى تورطت فيه ، فلا يحتملان الصدمتين معا : صـــدمة موتها ، وصدمة سلب عفافها . . . وكذلك لزم الكونت اندريه جانب الصمت

ولزم الصمت وهو مع نفسه فى حرب مشبوبة الضرام . فهذا الرجل الباسل ، الذى كان ينطوى بطبعه وإرادته ، على أصدق الفضائل التى يتميز بها أصدق جندى ، كان يمقت الخيانة ، والترخص فى الضمير ، وجميع ألوان المواربة ، وكافة ضروب الجبن . فشعر بأن من واجبه أن يتكلم ، وألا يدع بريئا يؤخذ بجهالة . وما كان يغنى عنه شيئا أن يقول لنفسه ، إن جرسلو هو القاتل الأدبى لشارلوت ، وإنه خليق بالعقاب كغيره من القاتلين . فانما كانت تلك سفسطة أملاها الحنق المضطرم ، وأوحى بها الحقد المتأجج ، فلم تقو على أن تخمد الصوت المنبعث من أعماق الضمير ، والذى يهيب بنا ألا نكون أعوان الظلم ، وشركاء فى البغى ، والقضاء على جرسلو باعتباره مرتكبا جريمة القتل بالسم ظلم لا شك فيه

وجد ظرف غير مرتقب هال اندريه دى جوسات وضاعف من حيرته واضطرابه : ذلك هو صمت المتهم . فلو أن جرسلو تكلم ، فلأ الأسماع

بتاريخ حبه وغرامه ، مدافعا عن رأسه ، على حساب شرف الضحية ، لما كان الكونت مسرفا فى احتقاره . على أن هذا المجرم الذى يسطو على الأعراض ، ما لبث أن تبدى فى كرم النبيل ، فلم ينطق بكلمة تلوث ذكرى تلك التى ساقها إلى أعماق الهاوية . وظهر ذاك الوغد فى مظهر الشجاعة أمام العدالة ، وتبدى فى ثياب البطولة على طريقته الخاصة . وفى كل حال ، لم يعد غير جدير إلا بالتقزز من لؤمه ، غير حقيق إلا بالاشمئزاز من نذالته

وقال اندريه لنفسه ، ما تلك إلا حيلة يعمد المتهم اليها ، ووسيلة يتذرع بها ، أمام محكمة الجنايات ، لينال البراءة ، إذ كانت القضية خلواً من الأدلة . ولكنه كان يعلم من كتاب اخته ، بوجود مذكرات يومية ، تتضمن تاريخ الأغراء ، ساعة فساعة ، ومرحلة بعد أخرى . وما من شك فى أن تلك المذكرات تزعزع أركان الاتهام ، وتضعف الرجاء فى القضاء على المتهم ، ورغم ذلك فان جرسلو أبى أن يبرزها

وما استطاع الضابط أن يعلل مثار غضبه ، من هذا السلوك الشريف الذى سلك خصمه ، حتى لقد رأى نفسه مسوقا برغبة ملحة لأن يسارع إلى القاضى المنوط به تحقيق الدعوى ، فتتجلى الحقيقة ، ويلقى الضوء على المأساة ، ولا تكون تلك التى قضت مدينة بشرفها لذاك الداعر الفاجر الذى سطا على عرضها ، فسلبها أثمن جوهرة فى تاج شرفها

وكلما تمثل أخته ، تلك الانسانة التى كان يحبها من كل قلبه ، كما يحب الأخ الكبير أخته الصغيرة ، حباً صادقا عميقاً — كلما تمثلها ضجيعة ذلك الوغد الزنيم ، والمدرس الحقير ، الذى ساقته المصادفات المحضة ، والحاجة إلى كسب القوت ، تجسمت أمامه الاهانة البالغة التى أعياه اليوم احتمالها ، كما أعياه ، ابان الحرب ، أن يشهد تسليم « متز » ويلقى سلاحه

وشعر بتفريج كربته ، حين ذكر أن قفص الاتهام :لا بل قفص الخزى والعار ، الذى أعد لطائفة المزورين ، وجماعة النصابين ، وفريق السفاحين السفاكين ، قد تهيأ لذاك الرجل ، ثم تتلقاه آلة الأعدام ، أو يلقى به فى غيابة السجن . . . وكان يخمد الصوت الذى يهيب به : « يجب عليك أن تتكلم . . . » . يا سبحان الله ! لقد مضت ثلاثة أشهر طوال ، وهو يقاسى شر ألوان القلق ، ويعانى أقسى ضروب الألم . وما مضت خلال هذا الزمن لحظة لم تتنازعه فيها تلك العواطف المتضاربة !

« ماذا أصنع ؟ » لقد كان يبدو له هذا السؤال أينما حل وارتحل . كان يبدو له وهو فى ميدان المناورات — فقد عاد إلى الخدمة — وهو ممتط صهوة جواده فينهب الأرض نهباً فى طرق اللورين ، وفى حجرته وهو يعمل فى ضوء المصباح . ومضت بضعة أسابيع وهو لا يجيب على هذا السؤال . ولكن أقبلت اللحظة التى ينبغى له أن يعمل فيها ، ويضع خطة حاسمة . فما هو إلا يومان حتى يحاكم جرسلو ، فيحكم عليه لا محالة . وما من شك فى أنه

سيكون فى الوقت متسع بعد القضاء عليه . على أن الحرب النفسية ستشتعل نارها من جديد . وكيف تمضى أشهر ثلاثة ولا يقطع برأى ، وهو الذى لم يعرف التردد أو الشك طوال حياته ؟ أفلا يشعر إذا انحدر إلى قرارة نفسه ، أن الصمت الذى يعتصم به ، فى الوقت الحاضر ، ليس إلا عزماً مؤقتاً ؟ نه لم يرتض أن يصمت إلى النهاية . وإنما أرجأ الكلام ، ولم يقف مكتوف اليدين ، ولا أعطى على نفسه عهداً ألا يتكلم . وهذا ما حال بينه وبين أن يصحب أباه فى الجلسة الأولى ، التى لا يلبث أن يطلع على محضرها ، إذ قد وافت الساعة الثانية عشرة ، ودنا موعد قدوم الشيخ الكبير

— وقال الجندى حين ألقى نظرة من النافذة ، إذ سمع كر عربة ، تدنو من الفندق : « ها هو المركيز قد أقبل »

— وما إن أقبل المركيز حتى ابتـــدره أندريه قائلا : « خيراً يا أبتى ؟ »

فاجابه : « خير ، إن المحلفين فى جانبنا ، » ولم يعد المسيو دى جوسات ذلك المتهوس الذى سخر منه جرسلو ، فى مذكرته ، وأوغل فى السخر . فقد تهلل وجهه ، وأبرقت أساريره ، وتجلت روح الشباب فى صوته وإيماءته . وجعلته عاطفة الانتقام يتماسك بدل أن يتخاذل . وأنسته مرضه ، وأصبحت عبارته قوية واضحة النبرات : « ففى صباح هذا اليوم تم سحب القرعة ... وبين الاثنى عشر محلفاً . لقد أخذت أسماءهم . . . ، » ثم يرجع إلى أوراقه ،

« بين الاثنى عشر محلفاً ، ثلاثة مزارعون ، وضابطان فى المعاش ، وطبيب ، واثنان من أصحاب الحوانيت ، واثنان من الملاك ، وصاحب مصنع ، وأستاذ ، وكلهم ممن طابت نياتهم ، وخلصت سرائرهم ، ومن أبناء البيوتات الذين يتطلبون مثلا رادعا . . والنائب العام على يقين من الحكم . . آه ! يا للشقى الفاجر ! ما شعرت بالراحة ، لحظة واحدة ، منذ ثلاثة أشهر ، إلا حين رأيته قادما بين جنديين ، فأيقنت أنه مأخوذ بجنايته ؛ وأن العدالة قد وضعت يدها عليه ! . . ومن هو ذاك المجرم الذى يفلت من قبضة العدالة ؟ . . لكن يالها من جرأة ! فقد نظر فى جوانب القاعة . . . وكنت جالساً فى الصف الأول . . . فرآنى . . . أفتصدق ؟ أنه لم يحول نظره . . . بل لبث يصوب النظر إلىّ ، كأنما هو يزدرينى . . . إنا نطلب رأسه ، وسنناله لا محالة . »

وطفق الشيخ يتحدث فى لهجة وحشية ، ولم يتبين آثار الألم التى ارتسمت على وجه الكونت ، حين سمع حديثه . فما لبث اندريه أن تراءت له صورة خصمه ، وهو صريع بين يدى القوة العامة ، مكبل بالحديد ، يحيط به الجند ، وتوشك العدالة أن تبطش به ، لا بل تسحقه تحت ثقل أداتها سحقاً — حتى استشعر الخجل ، خجل الرجل الذى يعهد بالقتل إلى طائفة من القتلة . وفى الواقع ، فقد سخر الجند والقضاة للقتـــل ، واتخذ منهم أداة للقيام بعمل ود لو قام به هو نفسه ، وبيديه ، وتحت مسئوليته ! . . .

أجل ، لقد كان من الجبن ألا يتكلم . ثم ماذا ينطوى من معنى ، تحت

تلك النظرة ، التى ألقاها المتهم على المركيز دى جوسات ؟ هل كان جرسلو يعلم بأن شارلوت كتبت الخطاب المتضمن اعترافاتها قبل يوم انتحارها ؟ ولئن كان يعلم به ، فماذا يظن ؟ لقد غلا الدم فى عروق الكونت حين خطر له أن ذاك الشاب يمكن أن يكون واقفا على الحقيقة ، فيزدريهما ، المركيز وهو ، لاعتصامهما بالصمت

— وما إن غادر أبوه الفندق ليستأنف حضور الجلسة ، بعد تناول الغذاء على عجل ، وبغير أن يتبادلا كلمة واحدة ، حتى قال لنفسه : « كلا ، لا أستطيع أن ألزم الصمت . سأتكلم . أو سأكتب . . . »

ثم جلس إلى المائدة ، وشرع يخط هذه الكلمات فى رأس ورقة : « سيدى الرئيس . . . » . وأقبل الليل ، وما برح ذاك الرجل البائس فى مكانه ، وجبهته فوق يده ، لم يكتب السطر الأول . وكان يترقب انباء الجلسة الثانية ، فاضطرب حين سمع من أبيه ، بيان ما داربها :

— « آه ! ياعزيزى اندريه ! كم كنت على حق حين أبيت أن تشهد الجلسة ! . . . ياللعار ! . . . ياللعار ! . . . لقد استجوب جرسلو . . . فمضى فى خطته ، وأبى أن يتكلم . . . وهذا ليس بشىء . . . ولكن الخبراء أقبلوا يحملون نتيجة التحليل . وكان طبيبنا أولهم . . . فتكلم الرجل بصوت متهدج ، حين وصف الأثر الذى تركته فى نفسه رؤية بنيتنا المسكينة شارلوت لدى دخوله الغرفة . . . ثم الأستاذ «ارمان » . وما كنت لتحتمل هذا الشىء الفظيع ، تشريح جثة ملاكنا ، وهى معروضة هناك ، فى

القاعة ، حيث يوجد خمسمائة شخص . . . ثم كيميائي باريس . لم تبق أثارة من الشك بعد ذلك ! . . . ورأيت على المائدة الزجاجة التى استعملها ذاك الوحش الضارى . . . ثم . . . كيف اجترأوا ؟ وأن محاميه ، وهو مع ذلك محام منتدب ، ولا يلتمس له العذر بأنه صديق موكله . . . محاميه إذن . . . لكن كيف أقول لك ؟ لقد تساءل عما إذا كانت شارلوت ماتت عذراء ، وعما إذا كانوا كشفوا عنها . . . فسرى التقزز ، وعلا التذمر ، فى جوانب القاعة ، وتملك الغيظ من فيها جميعا . . . هى ، بنيتى ، التى كانت ربة الصون والعفاف ، ورمز الاستقامة ، وعنوان الشرف ، بل التى كانت قديسة ! لقد هممت بأن ألطم ذاك الرجل . . . حتى القاتل تاثر من ذلك ، وهو الذى لا يجد التأثر سبيلا الى نفسه . . . فلقد رأيته . وفى تلك اللحظة أخذ برأسه بين يديه ، وانفجر بالبكاء . . . نبئنى ، أفلا ينبغى أن يكون ذلك محظورا بمقتضى القانون ، فلا تنصب الاهانة على ضحية ، بمرأى من الحاضرين بالجلسة ومسمع ؟ . . . فما الذى كان يعتقده إذن ؟ أفكان يعتقد أن لها عاشقا ؟ . . . عاشقا ! أو يكون لمثلها عاشق ! . . . »

وأخذ الحنق من الشيخ كل مأخذ ، حتى لقد انفجر بالبكاء . وحيال ذاك الألم البالغ ، شعر الابن بفؤاده يذوب أسى ، والدموع تنحدر من عينيه ، فتعانق الرجلان صامتين . فلما استطاع الأب أن يتكلم قال : « أنت ترى أن الجانب البشع الشنيع فى تلك المحاكمة هو أن يثار الجدل

علنا حول أمور خاصة ، وقد كانت تخجل مما يمس شعورها . أفلم أقل لك ؟ . . . إنى على ثقة بأنها كانت تشتق طوال الشتاء لغياب مكسيم . صدقنى ، لقد كانت تحبه ، دون أن تود المكاشفة بذاك الحب . . . وهذا الذى أضرم نيران الغيرة فى قلب جرسلو . . . فلما قدم إلى البيت ، فرأى رقتها ، وظرفها ، وبساطتها ، اعتقد أن فى وسعه أن يغريها ، فيتزوج بها . وكيف لها أن تدرك ذلك ، وأنا الذى قد خبرت الرجال لم أدركه ؟ »ولبث المركيز يبدى، ويعيد فى هذا الكلام ، طوال العشاء ، وطرفا من الليل . وكان ذلك عزاءه . الوحيد . والابن يصغى دون أن يجيب . وكان تقديس الأب لتلك التى قضت مثارا لحزنه فى اللحظة التى يتأهب فيها . . . يتأهب لماذا ؟ أفينزل هذه الضربة الهائلة بذاك الشيخ الكبير ؟ فلما انقلب إلى غرفته ، وسط السكون الشامل ، تناول خطاب أخته ، فاعاد قراءته ، رغم أنه يحفظ كل عباراته عن ظهر قلب . فكانت تنبعث من ثنايا تلك السطور التى خطتها يد تلك التى قضت ، زفرة يأس ، وهمسة ألم حزين ، يمزق نياط القلب ! ولقد لبثت الفتاة غارقة فى الوهم ، وكان يحدوها الاخلاص فى مناهضة شعورها ، وهبت من غفلتها حزينة باكية ، حتى لقد أحس الكونت الدموع تنحدر على خده . وبكى للمرة الثانية ، فى ذات اليوم ، وهو الذى ظلت عينه جافة بعد موت شارلوت ، كأنما تحترق بنار الحقد . وقال لنفسه : « لقد كان جرسلو خليقا بما ناله . . . » ولبث جامدا بضع دقائق ، ثم اتجه نحو الموقد ، وقد كانت النيران توشك أن تخمد ، فألقى باوراق الخطاب . وأشعل عود ثقاب ، ووضعه تحت الورق . فرأى النار تلتهب ، فتلتهم الكتابة ، فتحيل

الدليل الوحيد على ذاك الحب التعس ، وانتحار الفتاة ، حطاما سوداء . ثم مزج الحطام بالتراب . وآوى إلى فراشه وهو يحدث نفسه بصوت عال : « قضى الأمر ، » وأسلم عينيه للكرى كالليلة التى خاض فى نهارها غمار أول معركة ، فنام ملء جفونه ، ولم يفتح عينيه ، وهو المبكر عادة ، إلا فى الساعة التاسعة من صباح الغد

— وأجاب الجندى حين ناداه سيده ففتح النوافذ وكانت الشمس مشرقة ترسل أشعتها : « لقد حظر المركيز ايقاظ رئيسى . ومضى على ذهابه ساعة . . . ويعلم رئيسى أنهم اضطروا اليوم لاحضار المتهم بطريق خفى ، فلشد ما كانت ثورة الناس عليه »

— « فسأل أندريه : « أى طريق خفى ؟ »

— « الطريق المفضى من السجن الاحتياطى إلى دار المحكمة . . . ويظهر أنهم يستخدمونه لكبار المجرمين الذين يخشى أن يمزقهم الجمهور الثائر . أما والله ، يارئيسى ، لو رأيته يمر ، لأفرغت فى صدره رصاص مسدسى . . . فالكلاب الكلبة ، لاتحاكم ، بل تصرع . . . » ثم قال : « حسن ، لقد نسيت بريد الصباح فى البهو . »

وما لبث أن رجع وبيده ثلاثة خطابات . فألقى اندريه نظرة على الخطابين الأولين ، فأدرك لمن هما . فاما الثالث فكان يحمل عنوانا لا يعرف كاتبه . وكان موجها من باريس إلى لونيفيل ، ثم حول إلى « ريوم » . ففض الكونت غلافه وقرأ السطور الثلاثة التى خطها

سكست قبل أن يستقل القطار . فارتعدت يد الضابط الباسل الذى ماعرف الخوف سبيلا إلى قلبه . وامتقع لونه حتى بات فى لون الورقة التى يحملها بيده المرتعشة ، فارتاع الجندي وسأله :

— « ابرئيسى مرض؟ »

— فقال الكونت لجأة : « دعنى ، فسأرتدى ثيابى بنفسى . »

وحقا أنه كان بحاجة لأن يفيق من هول الصدمة التى أصابته . اذ تبين أن فى الناس من يعلم سر موت شارلوت غير روبير جرسلو . فلقد رأى صفحات بخط الشاب ، ولم يكن هذا خطه . وكانت هزة رعب وفزع كتلك التى تصيب أشجع الرجال فى حادث جلل غير مرتقب . ولو أن شارلوت بعثت من قبرها ، لما هاله مرآها ، كما هاله ذاك الحادث . فمن الناس من يعلم بانتحار الفتاة ، وبالخطاب الذى كتبته قبل موتها ، وقد يعلم غير ذلك من ملابسات المأساة . . . فما عسى ان يظن به ذاك الذى يعلم الحقيقة ؟ ان السؤال الذى ختمت به البطاقة يفصح عن ذلك . وما لبث الكونت أن تذكر ما اجترأ عليه ليلا . وذكر الخطاب الذى القاه فى النار ، فاصطبغ وجهه بحمرة الخجل . . . ولم يعد فى وسعه أن يمضى فيما اعتزمه بالأمس . ولا يحتمل ، وهو النبيل المتعطش للشرف ، ان يقول قائل : « ان الكونت دى جوسات وقف موقف جبن . » . وانبعث من جديد اضطراب الامس الذى حسبه مضى وانقضى ، وبات أصعب احتمالا ، حين عاد أبوه فقال له :

— « لقد سمع الشهود . . . وأديت شهادتي . . . على أن ما كان شديداً على نفسي ، وجودى مع ام جرسلو قبل دخول الجلسة . . . ومن سعد الطالع انها لم تنزل معنا فى هذا الفندق . . . بل نزلت في فندق آخر . واجترأت علي أن تدعونى لا تحدث اليها . ويالمنظرها حين دعتنى ! . . لقد كان وجهها مكفهرا ، وعيونها دامعة . . . وأقبلت تناشدنى أن أقول ان ولدها برىء ، وانى أعلم براءته ، وليس من الحق أن اشهد عليه . نعم ، ياله من منظر هائل ، رأى الجند واجبا عليهم وضع حد له ! . . . يالها من تعسة لا أستطيع لومها على ما فعلت . . . فذلك ولدها . . . ياعجبا لهذا الشقى الفاجر ، يجد قلبا ينطوي على حبه ، كما أحببت شارلوت واحببتك ! . . . لكن ذلك لا يعنينا . . . فقد حانت الساعة الواحدة . . . وسيتكلم النائب العام . . ثم يتلوه الدفاع . . . وبين الساعة الخامسة والسادسة تعلم الحكم . . . وكم يروى غليلي أن أراه ساعة النطق بالحكم ! . . فالقصاص الحق ، وقد ارتكب جريمة القتل ، ان يقتل »

بين الساعة الخامسة والسادسة ! . . لما بات الكونت اندريه وحده ، أخذ يغدو ويروح كما كان يفعل بالأمس — على حين ان الجندى ظل يرفع المائدة مع خادم المسيو دى جوسات . ولقد روى هذان الرجلان انهما لم يريا سيدهما فى مثل قلقه واضطرا به ، وقت أن كانا يقومان بذاك العمل . وأثار دهشتهما حين طلب أن تهيء له ثيابه الرسمية . وما هو إلا ربع ساعة حتى كان متأهبا ، فغادر النزل ، الذى لم يبرحه منذ قدم على مدينة «ريوم» . وما راع الجندى الا أن يرى الضابط يحمل مسدسه وقد ظل يومين ملقى

على مائدة غرفته . وتذكر ما قاله فافضى إلى صاحبه بالمخاوف التى تساوره :

— « لو قضى ببراءة جرسلو لأفرغ الضابط رصاص مسدسه فى رأسه ، فألقاه صريعا يتخبط فى دمه . . »

— فأجاب الخادم : « أو ليس من واجبنا ان نتبعه ؟ . . »

وبينا الخادمان يتشاوران ، كان الكونت فى طريقه إلى دار المحكمة . وكانت المدينة إذ ذاك فى مثل صمت القبور . فلما أقبل على دار العدالة ، الفى جموعا زاخرة غص بها الطريق المفضى إلى قاعة الجنايات . فلقد استثارت قضية جرسلو فضول الناس . وشق اندريه طريقه بين الصفوف بعناء . فلقد خف القرويون من الريف ، وتجمع أصحاب الحوانيت ، وكان هؤلاء وأولئك ، يجادلون فى حرارة . وألفى جنديين نيط بهما حفظ النظام وكبح جماح الجماهير المتدفقة . وبدا التردد على الكونت ، حتى سار إلى آخر الشارع غير معرج على المحكمة فألفى نفسه امام شرفة غرست فيها اشجار . وكان خرير الماء فى السبيل يسمع رغم ضجيج الجماعات الصاخبة المتدفقة . فجلس اندريه فوق مقعد على كثب من هذا السبيل . وما يدرى ما الذى حدا به لأن يمكث هناك نيفا ونصف ساعة ، ولا الباعث الذى حمله على النهوض ، والتوجه صوب دار المحكمة ، وتسطير بضعة كلمات فى بطاقته ، ودفع تلك البطاقة لأحد الجند ، ليحملها الحاجب إلى الرئيس . فلقد كان مسوقا إلى العمل رغم أنفه ، وكانما كان فى حلم . وما كان ينثنى عن عزمه ، ولو انه وجد نفسه وجها لوجه أمام أبيه ، إذ كان بين الحاضرين الذين اشرأبوا باعناقهم ، وأرهفوا أسماعهم ، تطلعا لما

يدور بالجلسة . ولم يخفف عنه الا حضور الحاجب ليرشده إلى الطريق . فلم يمر به إلى قاعة الجلسة مباشرة ، وإنما أدخله فى مكتب الرئيس . وكانت الملفات ملقاة على المائدة . وألفى معطفا وقبعة معلقين فى مشجب . وإذ قدم إلى هناك قال له الحاجب :

— « لا يلبث الرئيس أن يسمع أقوالك حين يفرغ النائب العام من مرافعته . . . » ياله من عزاء غير مرتقب خلال ألمه المبرح ! لن يؤدى الشهادة علنا وأمام أبيه ! فسيوفر عليه هذا العذاب الاليم ! على أن هذا الأمل لم يدم طويلا . فلم يكد الضابط يمضى فى مكتب الرئيس عشر دقائق ، حتى دخل هذا الأخير ، وكان شيخا كبيراً ، اشتعل رأسه شيبا . وما هى الا الكلمات الأولى ، وحيال تأكيد الكونت بأنه جاء يحمل دليل براءة المتهم ، حتى قال القاضى وقد تولاه الذهول :
— « لاأستطيع ياسيدى ، فى تلك الحال ، أن أستمع لما تسارنى به ... وستعاد الجلسة ، فتسمع كشاهد ، على شريطة أن لا يعارض الاتهام أو الدفاع فى سماع أقوالك . »

وكذلك قدر لأخ شارلوت أن يشرب كأس الألم حتى الثمالة ، ويتجرع غصص العذاب غير وان ، ويجتاز مراحل الهم مرحلة مرحلة . واصطدم بأداة العدالة ، التى لا تقيم ، ولا تستطيع أن تقيم ، وزناًللحساسية الانسانية

وكان لابد له أن يجلس فى غرفة الشهود ، فيذكر الشهادة التىوقعت ، منذ بضع ساعات ، بين أبيه وبين أم جرسلو ، ومن هناك يدخل إلى قاعة

الجنايات . وما إن دخل حتى اشرأبت الأعناق ، وتطلعت الأبصار .
وتصدر الرئيس بين زميليه . وتبدي النائب العام فى ردائه الأحمر . وجلس
المحلفون إلى شمال المحكمة . ووقف روبير جرسلو فى قفص الاتهام إلى
اليمين ، وقد طوى ذراعيه ، وعلى وجهه غبرة ترهقها قترة ، ولكنه كان
رابط الجأش . وتدفقت الجموع ، لتأخذ مكانها بالقاعة . ورأى أندريه أباه
بين الشهود فكاد المنظر يدمى قلبه . على أنه ظل ثابت الجنان ، حين سأل
الرئيس ، المدافع عن المتهم ، والنائب العام ، عما إذا كانا لا يعارضان فى
سماع الشاهد ، ثم سأله عن اسمه وصفاته وطلب منه حلف اليمين وفق الصيغة
المعروفة . ولقد أجمع القضاة الذين شهدوا المحاكمة على أن لا شبيه لذلك
الأثر البالغ الذى تملك نفوس الحاضرين ونفوسهم هم ، حين وقف ذاك
الرجل ، الذى عرف الكل من مقالات الصحف التى نشرت على ذكر
القضية ، ماضيه الحافل بالبسالة — فقال بلهجة ثابتة ، ولكنها تشف عن
الألم الذى يحز فى النفس :

— « حضرات المحلفين ، ليس لدى إلا كلمتان . أن أختى لم تقتل .
بل قتلت نفسها. وتلقيت منها ، فى اليوم السابق يوم موتها ، خطاباً تعلن فيه
عزمها على الموت ، ولماذا . . . واعتقدت ، يا سادتى ، أن من حقى أن أكتم
هذا الانتحار ، فحرقت هذا الخطاب ... ولئن كان الرجل الماثل أمامكم » ـ
وأشار إلى جرسلو بيده غير ملتفت إليه الا قليلا — «لم يصب السم ، فقد
صنع ما هو أسوأ . . . لكن قصاصه ليس من اختصاص عدالتكم ،
وما ينبغى أن يقضى عليه كقاتل . . . فهو برىء . . . ولئن أعوزنى الدليل

المادى الذى أستطيع تقديمه إليكم على تلك البراءة ، فانى أحمل لكم قولى . »

وتساقطت تلك العبارات واحدة بعد واحدة ، فأحزنت قلوب الحاضرين جميعاً . وسمعت صيحة أعقبها أنين . وقال صاحب الصيحة :

— « إنه لمجنون ، أنه لمجنون ، لا تصغوا اليه . »

فقال الكونت أندريه وقد عرف لهجة المركيز ، فالتفت إلى الشيخ الفانى ، وهو يكاد يتهدم فوق مقعده : « كلا ، يا أبتى ، ما أنا بمجنون . . . ولقد فعلت ما يقضى به الشرف . . . وأرجو ، ياسيدى الرئيس ، ألا أكره على أن أقول أكثر مما قلت . »

وشف صوته عن التوسل حين نطق بهذه العبارة ، وهو الرجل الذى تفيض نفسه عزة وكبرياءاً . فتذمر الحاضرون حين أجابه الرئيس :

— « لاأستطيع ، يا سيدى ، على كره منى ، أن أجيب سؤلك . فان خطورة الشهادة التى أديتها الآن ، لا تسمح للعدالة أن تركن إلى أقوال مبهمة ، بل يملى علينا واجبنا ، أن نضطرك إلى بيانها . . . »

— « حسن ياسيدى ، وسأقوم ، أنا الآخر ، بواجبى إلى النهاية ... »

ودلت لهجة الشاهد على العزم ، فانقطع التذمر ، وساد الصمت . وسمع الرئيس وهو يقول :

— « لقد تكلمت ، ياسيدى ، عن خطاب ، كتبته اليك الآنسة أختك ... فائذن لى . أن أقول لك ، أن من العجيب ألا يكون قد خطر ببالك ، لأول وهلة ، أن تنير العدالة ، بتقديمه اليها . . . »

— فقال الكونت : « لقد تضمن سراً وددت أن أكتمه ولو بذلت فى ذاك السبيل دمى . . . »

ولقد روى فيما بعد إلى مكسيم دى بلان الذى حفظ عهد الصداقة والود إلى نهاية المأساة ، أن تلك كانت اللحظة التى احتمل فيها أقسى التضحيات — ثم تضاعف الشعور حتى ذهب أثره . وأفضى بكل ما احتواه خطاب تلك التى قضت . والمضض الذى عاناه . والألم الذى قاساه . وما يذكر إلا أنه جلس فى مقعد الشهود ، حيث حمل أبوه ، إذ خر مغشياً عليه ، حين فاه بالعبارات الأخيرة من شهادته ... ونهض النائب العام فتخلى عن الاتهام . . . ولا يستطيع أن يقدر الوقت الذى مضى بين كلمات النائب العام ، ودفاع محامى جرسلو ، وخروج المحلفين بقرار البراءة . وما يذكر إلا أن الحارس دعاه للخروج حين خلت القاعة ، فخرج أمامه مسرعاً . ورآه بعض أهالى « كومبروند » بعد أن شهدوا جلسة الجنايات ، فى طريقه إلى تلك القرية . وخرج من فندق فيها حيث كان يكتب بضعة خطابات موجهة أحدها إلى أبيه ، والآخر إلى أمه ، والثالث إلى رئيسه ، والأخير إلى مكسيم دى بلان . وما حانت الساعة التاسعة حتى كان يطرق باب فندق «كومرس » فى مدينة « ريوم » حيث قال له المسيو دى جوسات إن والدة من برىء قد نزلت ، فسأل الحارس عما إذا كان المسيو جرسلو حاضراً . ولقد سمع هذا الغلام رواية الجلسة المحزنة . فما إن رأى الضابط أمامه ، فى ثوبه الرسمى ، حتى أدرك ، وهداه حسن التقدير لأن يجيب ، بأن المسيو روبير جرسلو لم يظهر إطلاقاً . ومن سوء الطالع أن أعتقد بأنه يحسن صنعاً إذا هو صعد

إلى الشاب فى الحال ، ولم تمض ساعة على خروجه من السجن ، فكان مع أمه والمسيو ادريان سكست . ولم يجد هذا الأخير سبيلا إلى مقاومة توسلات الأرمل التى ما كادت تراه فى بهو الفندق حتى ناشـدته أن يعينها على استقرار ولدها

— وطلب هذا الرجل أن يؤذن له بمخاطبة جرسلو على حدة فقال له : « حذار ياسيدى ، فان الكونت دى جوسات يجد فى البحث عنك »

— فسأل جرسلو بلهفة : « أين هو ؟ »

— فأجاب الحارس : « ما أظنه قد غادر الشارع . ولكنى قلت له بأن الناس لم يروك هنا »

— فرد جرسلو الجواب : « لقد أخطأت » وتناول قبعته ، وأسرع إلى السلم .

— فتوسلت اليه أمه : « أين تذهب ؟ »

فلم يجب الشاب . ولعله لم يسمع تلك الصيحة . فلشد ما هبط السلم مسرعا . إذ خشى أن يعتقد الكونت اندريه ، أن قد بلغ منه الجبن مبلغا ، جعله يتوارى منه . ولم يطل به البحث عن عدوه . فلقد كان الكونت فى الجانب الآخر من الشارع يرقب الباب [illegible]فه روبير وقصد اليه فسأله فى إباء وعزة :

— « هل لديك ما تقوله لى ، يا سيدى ؟ »

— فقال الكونت : « نعم »

ـ فلقى جرسلو يقول : « أنا رهين إشارتك فى أى إصلاح ترى أن تطلبه منى . وأعاهدك على ألا أبرح ربوم »

ـ فأجاب اندريه دى جوسات : « كلا ، يا سيدى ، إن الانسان لا يقاتل مثلك بل يقتله »

وتناول المسدس من جيبه . وبما أن الأخير لم يفر ، بل وقف أمامه ولسان حاله يقول : « جترىء ، » نق ، أفرغ رصاصة فى رأسه . وسمع من بالفندق ، فى وقت واحد ، طلق المقذوف النارى ، وصرخة نزع . ولما أقبل الناس وجدوا الكونت اندريه واقفا أمام الحائط ، وقد ألقى سلاحه ، وطوى ذراعيه ، وقال مشيراً إلى جثة عاشق أخته ، وهى ملقاة تحت قدميه :

« هذا جزاء حق ، وقصاص عادل » .

ثم أسلم نفسه طائعا


Bibliotheca Alexandrina
04294490